

د. محمد عمارة

عندما أصبحت

مِصْرٌ عَرَبِيَّةٌ إِسْلَامِيَّةٌ

دار الشروق

عندما أصبحت
رضي الله عنه

الطبعة الأولى
١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م

جميع حقوق الطبع محفوظة

© دار الشروق

استسرا محمد المعتز تم عام ١٩٦٨

القاهرة : ٨ شارع سيديه المصري - رابعة العدوية - مدينة نصر
ص.ب : ٣٣ البانوراما - تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣
فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)

مقدمة

كان القرن الرابع الهجرى ، العاشر الميلادى ، نقطة تحول فى قيام مصر العربية ، واكتمال قسمة العروبة - فى نضج وحسم - لهذا الوطن الذى فتحه العرب المسلمون على عهد الخليفة الثانى عمر بن الخطاب .

ففى ذلك القرن ، بلغت حركة التعريب ذروتها ، حتى إن كتب العبادة والصلوات فى الكنيسة المصرية قد اتخذت من العربية لغة لها كى يفهمها المصلون ! . . فكان ذلك تأريخاً لتعريب المعقل الأخير ، الذى استجاب لهذا الطور الجديد من الأطوار الحضارية ، التى قبلها وتفاعل معها وانخرط فيها ذلك الوطن ، الذى تضرب حضارته فى أعماق أعماق التاريخ . . فأصبحت مصر العربية . . بعد مصر القبطية . . وبعد مصر الفرعونية . . صفحة جديدة ومجيدة فى التاريخ المتصل للشعب المصرى . .

ومنذ ذلك التاريخ ، استطاع التاريخ - ويستطيع - أن يتحدث عن المجتمع المصرى العربى ، وليس فقط عن القبائل العربية التى هاجرت إلى مصر منذ الفتح . وأن يرصد حركة الأدب المصرى العربى : شعراً ، ونثراً ، وحكماً ، وأمثالاً . . والفكر المصرى العربى : فلسفة ، وكلاماً ، وفقهاً ، وتشريعاً ، وتفسيراً ، وحديثاً ، وتاريخياً ، وتقويماً للبلدان . . إلخ . . إلخ . . وأن يتأكد من الميلاد والاستواء لذلك المزيج الجديد ، فى العادات والتقاليد والأخلاق ، الذى جاء ثمرة تفاعل الميراث المصرى بالقيم العربية الإسلامية الشابة والفتية . .

وأيضاً . . فإن ذلك القرن ، قد شهد أمرًا جديدًا وحاسمًا على الصعيد

السياسى ، فيما يتعلق بعلاقات مصر بباقى أجزاء الإمبراطورية العربية الإسلامية . .

فمنذ أن فُتحت مصر ، عاشت مجرد ولاية تتبع عاصمة الخلافة : المدينة حيناً ، والكوفة حيناً ، ودمشق حيناً ، ثم بعد ذلك بغداد . . ولكن حركات الاستقلال الجزئى والذاتى ، التى عرفتها البلاد المصرية على عهد الدولة الطولونية (٨٦٨ - ٩٠٥ م ، ٢٥٤ - ٢٩٣ هـ) والدولة الإخشيدية (٩٣٥ - ٩٦٩ م ، ٣٢٤ - ٣٥٩ هـ) ، قد تحولت - إذا نظرنا إليها كتراكبات كمية - إلى تغيير كفى جديد ، عندما أصبحت مصر هى مقر الخلافة الفاطمية ، وعندما بنيت القاهرة عاصمة خلافة ومركز إمبراطورية . وحدث هذا الحدث الجلل ، فى الوقت الذى تمت فيه لمصر عملية التعريب ، يعنى أن مصر العربية قد بدأت تلعب دورها التاريخى والطبيعى الذى تأهلت له ، وقامت به فى عصور كثيرة منذ عصر الفراعنة الأقدمين .

وعلى الرغم من أهمية هذه الحقيقة ، التى يجب أن تستلقت الأنظار التأملة فى حياة المجتمع المصرى العربى فى تلك الفترة ، فإن الأمر الذى حدث - للأسف - هو أن معالم حياة المجتمع المصرى فى تلك الفترة ، لم تلق من البحث والدرس ما تستحقه الفترات الحاسمة فى تطور الأمم ، ذات التاريخ الطويل والمجد العريق . ولقد وقفت خلف هذا الإهمال أو الإغفال أسباب كثيرة ، لعل فى مقدمتها :

١ - أن حركة التاريخ للفكر العربى والمجتمعات العربية ، قد اهتمت أساساً بالتأريخ للعواصم . . وبخاصة دمشق وبغداد ، على عهدى الأمويين والعباسيين فظفرت هاتان العاصمتان - بما فيها من فكر وحضارة - بما تظفر به الآن عواصمنا ، من عناية واهتمام . وكان حظ الأقاليم الأخرى - برغم الأهمية الحضارية لبعضها - ذلك الإهمال الذى يشكو منه ريفنا اليوم ، عندما ينظر إلى العواصم الكبرى المحظوظة ! ! .

٢ - أن مصر ، عندما أصبحت « عاصمة » ومستقرًا للخلافة فى القرن الرابع

الهجرى ، كانت الخلافة فيها يومئذ فاطمية شيعية إسماعيلية . وبعد أن ذهب الدولة الفاطمية ، وقامت الدولة الأيوبية ، عاد المذهب السننى كى يصبح مذهب السلطة الحاكمة ، فتعرض النظام الشيعى - الذى حكم مصر زمن الفاطميين - إلى نقد وتجريح من المفكرين والمؤرخين السننين . والأهم من ذلك ، أن مصر ومجتمعها وحضارتها وإنجازاتها قد تعرضت هى الأخرى من هؤلاء المفكرين والمؤرخين إلى مواقف تراوحت بين النقد الظالم أو التشويه أو الإهمال والإغفال . . ومن ثم ، فلقد ظلّت مصر المجتمع ، ومصر الحضارة ، ومصر الفكر والعمران ؛ لأن الذين أرخوا لفترتها تلك كانوا لا يتعاطفون مع المذهب الفاطمى الشيعى والنظام السياسى الذى أقامه بمصر فى ذلك التاريخ ، أو يقفون منه ومن أيديولوجيته موقف الرفض والعداء .

ومن هنا ، تأتى أهمية هذه الدراسة التى نقدمها عن المجتمع المصرى فى العهد الفاطمى . . أهميتها لإنصاف الذين أنجزوا ذلك البناء الحضارى والسياسى الذى شهدته البلاد يومئذ . . وأيضًا - وهو الأهم - لتكون نقطة البدء فى تاريخ مصر العربية - عندما أصبحت عربية حقًا ، بالمعنى الحضارى ، لا بالمعنى السياسى فقط - لتكون نقطة البدء هذه واضحة المعالم ، متسقة الملامح ، مبرأة من ذلك التشويه الذى حوّل صفحات مجيدة من حياة مجتمعها ، إلى ركام من الأحداث والتصرفات والمراسيم والقوانين التى تتخذ مادة للسخرية والاستهزاء !!

وإذا كان القارىء سىرى فى فصول هذه الدراسة ما هو جديد تمامًا ، وما هو مخالف بالكلية لما تواضع عليه كثير من الذين نظروا فى أحداث تلك الفترة من حياة مصر ، فإن الفضل فى ذلك إنما يعود بالدرجة الأولى إلى المنهج العلمى الذى التزمنا استخدامه فى دراسة هذه الفترة ؛ فهو الذى يفسر لنا أمورًا حسب البعض أن لا تفسير لها . . وهو الذى جعل لبناء القاهرة ، مثلاً ، ولوقوعها كذلك معنى وفلسفة تعديان الدلالات الظاهرية التى لم يبصر سواها الكثيرون . . وباختصار: إنه المنهج الذى يضع يدنا على الحقيقة ، ويعطى عقولنا الفرصة كى تتأمل الإنجازات الحقيقية لهذه الأمة ، حتى تتزود بها هو ضرورى لمواصلة الطريق . .

فبمقدار نجاح هذه الدراسة في الكشف عن معالم حياة المجتمع المصرى ، في الفترة التى بدأت فيها عروبة هذا المجتمع فى النضج والاستواء ، وبمقدار ما ترد هذه الفصول إلى هذا الشعب الاعتبار بتقييمها العلمى لإنجازاته فى تلك الفترة ، يكون الرضا الذى نستشعره لبلوغ الهدف الذى توخيناه من وراء هذه الصفحات .

دكتور

محمد عمارة

الفصل الأول

المغزى الحضارى لنشأة القاهرة

- دراسة عن ارتباط نشأة القاهرة بعروبة مصر .
- وعودة الدور القيادى إليها فى المحيط العربى .
- وفلسفة المكان الذى قامت فيه . . وما ترمز إليه
- وحدة العواصم من وحدة فى التاريخ .

القاهرة... فلسفة المكان

ليس بغير التجاوز ، والتجاوز الشديد ، نستطيع أن نسلم بأن عمر عاصمتنا القاهرة الآن هو ألف عام فقط لا غير ! وعلى الرغم من أن شعبنا كله ، لا شعب القاهرة وحدها ، بل كل الشعوب التي تمثل القاهرة بالنسبة لها شيئاً ذا قيمة ووزن في محيط التحرر والتطور والتقدم ، قد اتخذت من سنة ١٩٦٩م عاما للاحتفال بالعيد الألفى لبنائها وإنشائها ، فإن هذا التاريخ الذي اعتدنا أن نحدد به بدء ميلادها - (سنة ٩٦٩م) - وهذه السنين الألف التي درجنا الآن على اعتبارها عمراً لها ، إنها هي « حقيقة » تاريخية لا بد وأن تناقش ، وخاصة في مثل هذه المناسبة ، وفي هذا المقام بالذات .

وبادىء ذى بدء ، فإن هدفنا من وراء جلاء هذه الجزئية من جزئيات الحقائق المتعلقة بتاريخ عاصمتنا ، ليس تصحيح الرقم الذي بلغته من عمرها المديد ، ولا هو تقديم وجهة نظر متميزة وجديدة في رقم من الأرقام التي تحفل بها كتب التاريخ ، بقدر ما نستهدف إبراز حقيقة هامة فيما يتعلق بعاصمة الوطن الذي نعيش فيه ونخلص في حبه والولاء له ، نستطيع أن تمثل بالنسبة لنا المنظار الذي نفضل النظر من خلاله لتاريخ بلادنا ، والزاوية التي نميل إلى أن نرى منها التطورات والمراحل والحضارات التي مرت على مصر ، والتي شهدنا وساهم في بنائها وبلورتها أجدادنا منذ أقدم عصور التاريخ . . وهما منظار وزاوية نفضل استخدامها في الرؤية ، ونحن ندرس تاريخنا القومي والوطني لمجتمعنا العربي الكبير .

ذلك ، أنه إذا كنا قد جعلنا من سنة ١٩٦٩م عام الاحتفال بالعيد الألفى

لإنشاء مدينة القاهرة ، على يد القائد جوهر الصقلی ، الذى فتح مصر قائداً لجيش الخليفة الفاطمى المعز لدين الله (٣٤١ - ٣٦٥ هـ ، ٩٥٢ - ٩٧٥ م) ، حيث وضع أساسات أبنيتها في يوليو سنة ٩٦٠ م - (سنة ٣٥٨ هـ) على مساحة مربعة يبلغ طول كل ضلع من أضلاعها ألفاً ومائتى ياردة^(١) ، فإننا يجب أن نعلم أن إقامة هذا البناء لم يكن بدء ميلاد هذه العاصمة ، كما أن الموقع الذى أقامها عليه جوهر لم يكن اختياراً مطلقاً من جانب هذا القائد الفاطمى الكبير .

فمنذ أن قام في مصر الفرعونية حكم الملك العظيم « مينا » ، الذى وحد شمال البلاد مع جنوبها ، وبنى لها عاصمتها الجديدة « منف » (ممفيس) في نحو سنة ٣٤٠٠ ق.م ، نستطيع أن نقول إن كل أنظمة الحكم التى تعاقبت على مصر ، والتى أراد أصحابها أن يكونوا قريبين من روح هذا الشعب أو ملتحمين بهذه الروح ، قد جعلوا من هذه العاصمة ذاتها ، أو من إحدى ضواحيها ، أو من المناطق التى أصبحت امتداداً لها ، العاصمة التى تحكم منها البلاد ، بحيث نستطيع أن نقول إن جميع العواصم التى خفقت لها قلب مصر ، والتى منحها الشعب حبه وولاه إنما كانت بمثابة تطورات مستحدثة ، وصور متجددة لتلك العاصمة التى بناها « مينا » منذ أكثر من خمسة آلاف عام .

وإذا كانت الإضافة ذات القيمة ، التى نسعى إلى تقديمها هنا من خلال إثبات هذه الحقيقة ، إنها تلتخص في أن وحدة العواصم المصرية إنما هى صنو لتجدها وتطورها وتعددتها ، بقدر ما نجد أن تعدد المراحل التاريخية والحقب الزمنية والأطوار الحضارية التى مرت بهذه البلاد إنما هى صنو لوحدة تاريخ هذه البلاد ، وصمود شخصيتها الأصيلة المتطورة لكل المحن والأحداث والتغيرات التى رماها بها الأعداء منذ تاريخها القديم . إذا كانت هذه الحقيقة البسيطة ، والعميقة في ذات الوقت ، هى ثمرة وجهة النظر التى نجتهد لعرضها وإبرازها بين يدي هذا

(١) ستانلى لينبول (سيرة القاهرة) : ص ١٢٢ ، ١٢٤ ، ترجمة د. حسن إبراهيم حسن . ود. على إبراهيم حسن وإدوارد حليم . ط . القاهرة سنة ١٩٥٠ م .

البحث ، فالأمر المؤكد أنها حقيقة وإضافة تستحقان منا وقفة تضمن لهما الوضوح والجلاء والإبراز ، وإن يكن الحيز الذى نسوق فى إطاره هذا الحديث إنما يدعونا إلى تكثيفها فى عدد محدود من النقاط :

● فالعاصمة المصرية القديمة ، التى بناها « مينا » قبل ميلاد المسيح بنحو ٣٤٠٠ عام ، كان موقعها على الضفة الغربية لنهر النيل ، الذى قيل إن « مينا » قد حول مجراه يومئذ كى يبني لمصر هذه العاصمة ، التى تطل منها السلطة المركزية على الوطن الذى بنيت وحدته منذ ذلك التاريخ . وحول « منف » (مفيس) هذه ، امتد العمران على مر الزمن ، واتسعت البنايات ، وتفرعت الضواحي ، وانتشرت من حولها الآثار ، وبنيت الأهرامات : أهرامات سقارة ، ودهشور ، وبشت ، وميدوم ، وهوارة من الجنوب ، وأهرامات الجيزة من الشمال . وموقع هذه العاصمة القديمة الآن ، على وجه التحديد ، مدينة «البدرشين» وقرية « ميت رهينة » ، جنوبى الجيزة ، وعلى الضفة الغربية لنهر النيل ، فى مقابل ضاحية « حلوان » .

● ثم جاء حين من الدهر ، اتخذ فيه الغزاة الأجانب ، وبخاصة الهكسوس ، لمصر عاصمة أخرى غير « منف » . وأصاب هذه المدينة الكثير من الإهمال ، وعدت عليها عوادى الأيام . ولكن هذا الموقع وهذا المكان ظللا بالنسبة لهذا الوطن القلب والعاصمة التى يمنحها الناس المحبة والود والولاء . وعندما امتد عمرانها عبر النيل ، نجدها تبعث مرة أخرى فى صورة ذلك الامتداد الذى تمثل فى تلك المدينة ذات التاريخ الغامض ، والتى وجدها الفاتحون العرب على الضفة الشرقية للنيل فى مقابل الجيزة ، والتى كانت أحيائها تمتد إلى الشمال وإلى الجنوب من « حصن بابلون » الشهير فى ذلك التاريخ .

وإذا كان الغزاة الرومان قد صنعوا مع مدينة « مصر » - عندما بنى الإسكندر الأكبر مدينة الإسكندرية وجعلها عاصمة للبلاد فى سنة ٣٣٢ ق.م - ما صنعته الهكسوس مع « منف » قبل ذلك التاريخ ، فإن رفض الشعب المصرى للسلطة الرومانية ، وللسلطان الذى مد فى عمرها على يد البطالسة ، قد جعل ولاء هذا

الشعب ممنوحًا «لمصر» دائماً ، بل وجعل من الإسكندرية ، مدينة أجنبية وغريبة عن روح الوطن ، وحاضرة للجاليات الأجنبية أكثر منها عاصمة صادقة التمثيل لقسمات هذه البلاد .

● فإذا ما جاء العرب المسلمون إلى مصر فاتحين لها ، ومحررين لأرضها من سلطان الرومان في سنة ٦٣٩ م - (سنة ١٨ هـ) ، نجد قائدهم عمرو بن العاص يقيم لهذا الوطن عاصمة جديدة تحمل اسم « الفسطاط » في سنة ٦٤١ م - (سنة ٢١ هـ) . وإذا بهذه العاصمة الجديدة تقام على مقربة من مدينة « مصر » الفرعونية ، وإلى الشمال من حصن « بابلون » ، الذي يقع هو الآخر إلى الشمال الشرقي - عبر النيل - من مدينة « مينا » « ممفيس » .

● حتى إذا كان الانقلاب السياسى والفكرى والحضارى ، الذى أحل سلطان العباسيين مكان سلطان الأمويين فى سنة ٧٥٠ م - (سنة ١٣٣ هـ) ، وجدنا ولاية مصر تصبح من نصيب الأمير العباسى « صالح » ، أحد إخوة أمير المؤمنين العباسى السفاح ، فيبعث إليها ، نيابة عنه ، « أبأ عون » الذى يقيم لها عاصمة جديدة غير الفسطاط فى سنة ٧٥١ م - (سنة ١٣٤ هـ) ، ويسميا « العسكر » ، لأنها كانت فى البداية مكاناً لجيشه وشرطته . فإذا موقع « العسكر » هذه ، إنها هو إلى الشمال الشرقى من الفسطاط .

● فإذا ما حكم أحمد بن طولون مصر من قبل العباسيين ، ثم مستقلاً عنها استقلالاً ذاتياً ، بل وحقيقياً ، عن سلطان خلفاء بغداد ، نجده ينشئ لها عاصمة جديدة يسميا « القطائع » فى سنة ٨٧٠ م - (سنة ٢٥٨ هـ) . فإذا بموقع هذه العاصمة الجديدة إنها هو إلى الشمال الشرقى من « العسكر » .

● فإذا ما جاء القائد الفاطمى جوهر الصقلى ليفتح مصر ، وليزيل منها حكم الأسرة الإخشيدية المغلف بغلالة رقيقة من الولاء للعباسيين ، وليقيم العاصمة الجديدة « القاهرة » فى سنة ٩٦٩ م - (سنة ٣٥٨ هـ) ، فإننا نجد موقع هذه العاصمة الجديدة إلى الشمال الشرقى من مدينة « القطائع » .

● حتى إذا جاء صلاح الدين الأيوبي إلى مصر جندياً في سنة ١١٦٩ م - (سنة ٥٦٥ هـ) ليصبح بعد قليل وزيراً ، ثم سلطاناً ، نجده يشرع في سنة ١١٧٦ - ١١٧٧ م - (سنة ٥٧٢ - ٥٧٣ هـ) في بناء القلعة الشهيرة والسور الذى ضم فى أحضانه كل العواصم العربية الإسلامية لمصر منذ الفتح العربى لها حتى ذلك الحين ، وهو السور الذى بلغ طوله ٣٠٢ و ٢٩ ذراع ، والذى توفى صلاح الدين قبل أن يكتمل إنشاؤه ، ثم اكتمل فى عهد أخيه السلطان الكامل سنة ١٢٠٧ - ١٢٠٨ م (سنة ٦٠٤ - ٦٠٥ هـ) والذى قام ليجسد الوحدة الحقيقية للعاصمة ، رمزاً لوحدة هذا التاريخ العربى الإسلامى لهذه البلاد .

● فإذا ما جئنا اليوم للحديث عن عمر القاهرة ، فى ظل تصور جديد لأبعاد هذه العاصمة وامتداداتها العمرانية ، نعبّر عنه بعبارة « القاهرة الكبرى » التى تمتد لتشمل مناطق آثار الفراعنة عبر النيل على الضفة الغربية للنهر الخالد ، فإننا نستطيع أن نقول : إن قاهرة اليوم إنما هى الامتداد الحضارى والتاريخى والمعمارى ، الحى ، والمتطور ، وأيضاً المتحد ، لهذه العاصمة الفرعونية القديمة التى بناها «مينا» باسم «مفيس» فى سنة ٣٤٠٠ ق. م ، وأن هذه الوحدة المتطورة لهذه العاصمة ، إنما هى رمز للوحدة المتطورة لتاريخ هذا الشعب وهذا الوطن عبر هذه الأحقاب المتطاولة من التاريخ ، وأيضاً هى المفتاح الذى لا مفتاح سواه لفهم روح هذا الشعب ، وكنه الحضارة التى صنعها ، ولفض الكثير من المغاليق التى قد يبصرها البعض فى صفحات هذا التاريخ .

وإذا كانت هذه النقاط التى كثفنا فيها وجهة النظر هذه ، قد أفضت بنا إلى هذه الحقيقة الهامة ، فإنها قد أكدت ولاشك ما سبق أن قدمناه من أننا بغير التجاوز الشديد ، لانستطيع أن نقول إن عمر القاهرة الآن ألف عام فقط لا غير! .

فإذا عنّ للبعض أن يقول : إن تاريخ الميلاد الذى احتفلنا بمرور ألف عام على حلوله بالنسبة لمدينتنا هذه ، إنما هو تاريخ ميلاد تسميتها بهذا الاسم الجديد والأخاذ - « القاهرة » - والذى جاء تعبيراً عن مرحلة تطويرية جديدة فى عمرها

المديد ، عندما فتحت مصر من قبل الفاطميين ، ورمزاً للدور الجديد ، والأكثر
فاعلية وتأثيراً ، الذى أصبح لمصر منذ ذلك الحين فى المحيط العربى من الخليج إلى
المحيط ، والعالم الإسلامى فيما هو أبعد من الخليج شرقاً وإلى الجنوب الشرقى ،
وما هو خلف الحزام الصحراوى الذى يلى بلاد الشمال الإفريقى من الجنوب - إذا
ما عنَّ للبعض أن يسوق مثل هذا الحديث ، فإننا نستطيع أن نجيبه بأن اسم
« القاهرة » . . فى الرواية الأدق والتصور الأكثر منطقية ، لم يطلق على هذه المدينة
الجديدة التى بناها جوهر فى سنة ٩٦٩ م عندما شرع فى بنائها ، ولا عندما اكتمل
له هذا البناء . بل لقد سماها « المنصورية » فى ذلك الحين ، لأن هذه المدينة كانت
يوميئذ بالنسبة لجوهر الصقلى صاحبة ملكية ، يعدها لاستقبال أمير المؤمنين المعز
لدين الله الفاطمى ، وكذلك كانت حصناً دفاعياً يقى العاصمة الأصلية « مصر »
(الفسطاط والعسكر والقطائع) من هجمات القرامطة التى كانت البلاد تتعرض
لها من الشرق فى ذلك الحين . ولقد سماها « المنصورية » ، تقريباً إلى مولاه المعز بن
الخليفة « المنصور » . كما كانت عاصمة الدولة الفاطمية فى المغرب (تونس) تسمى
« المنصورية » كذلك . وكما كان موقعها بالنسبة لمدينة « القيروان » هو نفس موقع
« منصورية » جوهر الصقلى من « مصر » ، العاصمة الأصلية للبلاد ، بل ولقد
أطلق جوهر على بعض أبواب المدينة الجديدة ، ضمن ما أطلق من أسماء ، اسم
« باب زويلة » و « باب الفتوح » ، وهى أسماء ، وإن ارتبطت بقبائل مغربية كانت
تحارب ضمن قوات الفتح الفاطمى لمصر ، إلا أنها قد كانت كذلك أسماء لبعض
أبواب « منصورية » المغرب . أما تاريخ ميلاد اسم « القاهرة » ، ومناسبة إطلاقه
على هذه العاصمة الجديدة ، فلقد جاء مع وصول المعز لدين الله إلى البلاد ،
ليستقر بها ويحكم منها دولته الجديدة المديدة ، حيث سماها « القاهرة » لمغزى
سياسى أراد من خلفه الإعلان عن أن هذه العاصمة والسلطة التى يحكم منها
ستقهران بقايا النظام العباسى المترعب على عرش بغداد . وكانت هذه التسمية ،
بغد بناء جوهر لها بأربع سنوات .

أما أولئك الذين ينسبون إلى جوهر الصقلى فضل اختيار هذا الاسم ، أو

ينسبون فضل اختياره إلى ذلك الغراب الذى وقف على الأسلاك ذات الأجراس فجعلها تدق مؤذنة لعمال البناء بوضع أحجار الأساس ، بينما كان المنجمون يرقبون السماء ينتظرون ظهور نجم سعيد لبدأ البناء ساعة طلوعه ، فحكّم عليهم الغراب بأن يكون بدء البناء ساعة ظهور النجم « القاهر » ، ذى الطالع غير السعيد - أما الذين يذهبون هذا المذهب فى تعليل هذه التسمية ، فلا أحسب إلا أنهم قد قادهم شغف الفاطميين بالنجوم والتنجيم إلى تصديق أسطورة ترمز إلى أن طالع هذه العاصمة إنما هو طالع غير سعيد ، وهى أسطورة تخدم أعداء الفاطميين أكثر مما تخدم الدولة الفتية التى بنيت القاهرة عاصمة لها ورمزا لشبابها العملاق الذى تبدى فى ذلك الحين (١) .

(١) راجع فى ذلك خطط المقرئى : ج ٢ ، ص ١٧٩ - ١٨٠ ط . بلاق . و(اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء) للمقرئى أيضا : ص ١١١ ، ١١٢ تحقيق د . جمال الدين الشيال ، ط . القاهرة سنة ١٩٦٧ م .

الفصل الثاني مصر

هل فتحت أبوابها لكل الغزاة؟!

- دراسة لمغزى الفتح الشيعي الفاطمي لمصر السنية . . وموقف العنصر الوطني المصري من هذا الفتح . . ولطبيعة السلطة التي كانت تمثلها الدولة الفاطمية : سياسياً وحضارياً وفكرياً . . ولدور مصر الذي تميز بقيام ذلك النظام . .

تساؤل .. يحير الكثيرين

ولكن . . إذا كانت هذه العاصمة الجديدة ، إنها كانت امتداداً عمرانياً وحضارياً وتاريخياً لما سبقها من العواصم ، التي تجاوزت وتلاحمت وتعاقبت لتجسد وحدة تاريخ هذه البلاد ، برغم تعدد الغزاة وتنوع سلطات هؤلاء الغزاة ، فما لا شك فيه أن هذا الحديث إنما يمثل مناخاً صالحاً لتوليد التساؤل حول موقف الإنسان المصرى من هؤلاء الغزاة ، وهل كان عاشقاً للعبودية إلى هذا الحد الذى جعله « يرحب » بكل قادم ١٩ أو على الأقل سلبياً إلى الحد الذى جعله يدير ظهره لمسرح الأحداث السياسية والعسكرية ، التى تعاقب تمثيلها على أرضه وبين ربوع العواصم التى بنيت على ضفاف نيله العظيم ١٩

وإذا كان الإطار الذى نسوق فيه هذا الحديث ، لا يتيح لنا الفسحة كى نتعقب موقف الإنسان المصرى من تعاقب السلطات والغزوات التى شهدتها بلاده فى حقبة كثيرة ومتعددة من التاريخ ، فإننا ولا بد أن نلمس هذه القضية فيما يتعلق بالفتح الفاطمى لهذه البلاد ، وهو الفتح الذى أثمر ذلك الامتداد الجديد فى عاصمتها ، « القاهرة » . ولعل هذا التناول الموجز لهذه القضية ، ونحن بصدد الفتح الفاطمى ، يلقى بعض الأضواء على الأحداث المشابهة له فى فترات أخرى من تاريخ هذه البلاد .

فى الفترة ، التى تم فيها فتح مصر من قبل الجيش الشيعى الفاطمى الذى قاده جوهر الصقلى ، والتى يعجب البعض كيف تم فيها قبول شعب مصر

«السني» السلفى لحكم الشيعة دون مقاومة شعبية يسجلها له التاريخ !! بل ودون أن يشغل المؤرخون أنفسهم بأى حديث عن موقف العنصر الوطنى من هذه الأحداث الهامة ، والتغيرات الجذرية العميقة التى أصابت السلطة فى البلاد ، مما يؤسس عليه هذا البعض دعوى سلبية «العنصر» المصرى على مر التاريخ ، و«خنوعه» الدائم للغزاة المتعاقبين !!

إن هذه الفترة التاريخية ، تحمل فى طيات قسائمتها الأساسية والبارزة عددًا من الحقائق ، التى تمثل بعض الإجابة عن هذا التساؤل الذى يحير الكثيرين . وهى إجابة ، فيها الكثير من الإنصاف الموضوعى لمصر والمصريين .

١ - فلقد كانت هذه الفترة الزمنية مرحلة من التاريخ العربى الإسلامى ، شهدت مدًا سياسيًا وفكريًا شيعيًا ، أخذ يتعقب السلطة العباسية السلفية المحافظة فى كل مكان ، ويسحب من تحت أقدامها الولايات والإمارات ، ويتنزع من فوق هاماتها التيجان .

● فى أقصى المشرق العربى الإسلامى ، كانت الدولة «البويهية» ، وهى دولة شيعية ، قد بسطت نفوذها ، وامتد سلطانها ليشمل بغداد نفسها ، وليصبح الخليفة العباسى «السني» السلفى مجرد دمية فى أيديهم منذ سنة ٩٤٥ م - سنة ٣٣٤ هـ) . هذا النفوذ البويهى الشيعى ، قد ظل مرفرفًا على كثير من البقاع العربية الإسلامية ، التى يذهب جمهورها فى عقائده مذهب السلف أكثر من قرن من الزمان (١) .

● وفى الجنوب الشرقى من شبه الجزيرة العربية ، وفى منطقة الخليج على وجه التحديد ، قامت للقرامطة ، وهم تيار يسارى فى الحركة الشيعية ، دولة بزعامة أبى سعيد الجنابى فى سنة ٨٨٩ م - (سنة ٢٨٦ هـ) ، ثم أخذت تمد سلطانها إلى بلاد أخرى ومناطق مجاورة ، فاستولت على اليمامة سنة ٩١٣ م - (سنة ٢٩١ هـ) ،

(١) فيليب حتى ، وآخرون (تاريخ العرب) «مطول» : ج ٢ ، ص ٥٦٥ ، ٥٦٦ ، ٥٦٧ ، الطبعة الثانية ، بيروت سنة ١٩٥٣ م .

ثم عمان ، ثم احتلت مكة لفترة من الزمن سنة ٩٣٠م - (سنة ٣١٨ هـ) .
وأخذت تغير على العراق والشام . ودخلت في تحالفات مؤقتة وتكتيكية مع
الخلافة العباسية ، وفرضت عليها الأتاوت . كما غزت اليمن بجيش يقوده أحد
رجالها وهو « نجار حرفي » يسمى « الحسن بن فرج الصناديقي » في سنة ٣٠٥
هـ - (سنة ٩١٧م) ، وطمعت في مصر وبذلت العديد من المحاولات للاستيلاء
عليها زمن الإخشيديين وبعد فتح الفاطميين .

● وفي نفس الفترة الزمنية ، قامت في اليمن دولة للشيعة الزيديين على يد الإمام
المهادي يحيى بن الحسين (٨٥٩ - ٩١٠ م ، ٢٤٥ - ٢٩٨ هـ) ، وهي الدولة التي
قاتلت القرامطة وأجلتهم عن البلاد ، كما قاتلت العباسيين .

● وهي ذات الفترة الزمنية التي قامت فيها الدولة الفاطمية الشيعية في المغرب
سنة ٩٠٩م - (سنة ٢٩٧ هـ) ، ثم فتحت مصر سنة ٣٥٨ هـ - (٩٦٩ م) ، ثم
امتد سلطانها إلى الحجاز في سنة ٣٦٣ هـ - (سنة ٩٧٣م) ، بل وإلى الموصل
بالعراق ، حيث نُحطب على منابرها مرة للخليفة الفاطمي العزيز (٣٦٥ -
٣٨٦ هـ ، ٩٧٥ - ٩٩٦ م) ، وإلى بغداد نفسها ، حيث نُحطب على منابرها
للفاطميين أربعين أسبوعًا في سنة ١٠٥٨ - ١٠٥٩م (١) .

وهكذا ، لم يكن الفتح الشيعي الفاطمي للمجتمع المصري السلفي أمرًا فريدًا
في نوعه . ومن ثم فليس فيه أي شبهة يمكن أن يتعلق بها أولئك الذين يتوهمون
فيه دليلاً على سلبية المصريين وخضوعهم المستمر والأبدى للغزاة والفاطميين !

٢ - لقد كانت في الطبيعة المتساهلة لدى الشعب المصري إزاء المذاهب والفرق
والمعتقدات ، التي تضطرب بها الحياة الفكرية العربية الإسلامية ، تربة خصبة
ساعدت على تقبل مصر لهذا الطابع الجديد الذي تصطبغ به السلطة الفاطمية

(١) المصدر السابق : ج ٣ ، ص ٧٣٤ ، وج ٢ ، ص ٥٣٤ - ٥٣٦ . واتعاظ الحنفا : ص

١٦٦ ، ١٦٧ . وسيرة القاهرة : ص ١٧٧ .

الجديدة . فالتعصب المذهبي والطائفي ، لم يكن نطاقه يتعدى ، في أغلب الأحيان ، إطار الفقهاء والساسة الذين يتاجرون بالمذاهب والأديان . أما جمهور الناس البسطاء ، فلقد كانت نظرهم أكثر تسامحاً ، وأفقههم الاعتقادي أكثر رحابة ، ومصالحهم الحقيقية تقودهم إلى موقف نابع من الإخاء الوطني ، بصرف النظر عن اختلاف المذاهب الإسلامية التي تنتسب جميعها إلى أجلاء الصحابة وخيرة التابعين ، كما تلتبس جميعها التأييد عن طريق النصوص المأخوذة من القرآن الكريم وحديث الرسول عليه الصلاة والسلام . ولقد ساعد على ذلك ، أنه كانت « للخلافة الفاطمية سياسة ثابتة في استمالة أهل السنة والجماعة ، وتمكينهم من إظهار شعائهم على اختلاف مذاهبهم . وكانت المذاهب السنية المعروفة . . . ظاهرة الشعائر في مملكتهم ، وكان مذهب مالك بالأخص ذاتماً ، ومن سأل الحكم به أجيب إلى طلبه »^(١) ويشهد لذلك الأمان الذي أعطاه جوهر الصقلي لأهل مصر بعد فتحها ، والذي تعهد فيه بترك الناس على مذاهبهم ، إذ الإسلام « سنة واحدة وشريعة متبعة »^(٢) .

٣- كما أن قرب اعتناق الجمهور المصري للإسلام ، وحدائمه عهده بالحضارة العربية والتعريب ، لم يكونا يؤهلانه للتحزب الشديد والتعصب الأعمى لمواقف اعتقادية ، تنتسب إلى خلافات سياسية تمت زمني على بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان . وهو جمهور ، لم يكن يومها قد دخل ، من حيث جمهورته العظمى ، حلبة العروبة والإسلام بعد . كما أن القبائل العربية ، التي كانت تعيش بمصر ، والتي كانت تشارك في الأحداث السياسية والعامة مشاركة أكثر إيجابية ، قد كانت ترى - برغم موقفها السلفي في العقائد - في الفاطميين سلطة عربية شابة وفتية إذا ما قورنت بسلطة الصبية الإخشيديين وكافور الإخشيدى العبد الخصى ، الذي سيطر على الدولة المصرية الإخشيدية عن طريق وصايته على هؤلاء الأطفال ، وإذا

(١) محمد عبد الله عنان (الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية) : ص ٣٧٩ . الطبعة الثانية . القاهرة سنة ١٩٥٩م (نقلًا عن صبح الأعشى : ج ٣ ، ص ٥٢٤) .
(٢) اتعاظ الحنفا : ص ١٠٥ .

ما قورنت كذلك بالأشباح العباسية المتهالكة في بغداد ، والتي لم يعد لها من معنى الخلافة ولا رسومها سوى الخلع والألقاب !

فماذا كانت تلك الخلافة العباسية تساوى في نظرهم ، ونظر المصريين عموماً ، وهي التى أصبحت تحت رحمة « البويهيين » و « القرامطة » ، فضلاً عن الجنود الأتراك الذين سيطروا على قصورها منذ ولى عصرها الذهبى ، إذا ما قورنت بالدولة الفاطمية الفتية صاحبة الأسطول المسيطر فى البحر الأبيض ، والذي أخضع لسلطانها جزر « صقلية » و « سردينيا » و « قورسقا » و « مالطة » ، والذي هدد السواحل الجنوبية لفرنسا وإيطاليا وأغار عليها مراراً ، وعاد منها بالغنائم والأسلاب ، كما غزا سواحل إسبانيا الأموية ؟ كل ذلك منذ ما قبل فتح مصر بأكثر من أربعين عاماً^(١).

٤ - أضف إلى ذلك أن الدولة الفاطمية ، كشأن الحركات الشيعية ، إنما كانت تعتمد على الدعاة وسلطان الفكر وغزو العقول قبل أن توجه الجيوش إلى فتح البلاد . ولقد كانت للفاطميين عناية كبيرة بالتمهيديين الفكرى والسياسى لفتح مصر ، لأنها لم تكن بالنسبة إليهم مجرد أرض خصبة تضاف إلى خلافتهم ، وإنما كانت أملهم فى إقامة مركز يتوسط العالم العربى لتمتد منه سيطرتهم على كل بلاد العرب والمسلمين ، والقاعدة التى من فوقها يمكن لهم إزالة بقايا حكم بنى العباس من بغداد . وإذا كانت المحاولات الأولى للغزو الفاطمى لمصر لم تكلل بالنجاح ، فإن هذا الفشل قد علمهم المزيد من الإصرار ، والمزيد من المثابرة على بذل الجهد ، وفى الميادين الفكرية والسياسية بالذات .

ولقد سجل التاريخ أن المعز لدين الله الفاطمى قد أمر فى سنة ٣٥٥هـ - (سنة ٩٦٥ م) ، وقبل فتح مصر بثلاث سنوات ، وقبل وفاة كافور الإخشيدي بعامين ، بأن تحفر آبار المياه للجيش الذى سيفتحها على طول الطريق من المغرب حتى حدودها ! وأن يبنى له فى كل منزلة قصر ينزل به ، وهو فى الطريق إليها بعد

(١) تاريخ العرب : ج ٣ ، ص ٧٣٣ ، وسيرة القاهرة : ص ١١٥ .

الفتح! كما ستر مع جوهر الصقلى جيشًا قوامه مائة ألف مقاتل ، وصفه
المفاوضون المصريون الذين فاضوا جوهرًا في الأمان بأنه « مثل جموع عرفات كثرة
وعدة »^(١) ! وقال فيه الشاعر الشيعى محمد بن هانىء الأندلسى (٣٢٦ - ٣٦٢ هـ ،
٩٣٧ - ٩٧٢ م) :

رأيتُ بعينى فوق ما كنتُ أسمعُ وقد راعنى يومٌ من الحشر أروعُ
غداةً كأنَّ الأفقَ سُدَّ بمثليه فعاد غروبُ الشمس من حيثُ تطلع
ألا إنَّ هذا حشدٌ من لم يذقْ له غرازَ الكرى جفنٌ ولا باتَ يهجعُ^(٢)

وزود هذا الجيش بأموال ، بلغ مجموعها أربعة وعشرين ألف ألف دينار ،
عبثت في ألف وخمسة صندوق ، كما يقول المقرئى^(٣) .

وإذا كان هذا الجانب نموذجًا للجهد المادى الذى بذله الفاطميون لفتح
مصر ، وهو جهد أجداد ابن هانىء وصفه ، عندما قال إنه قد تطلب من القائم عليه
ألا يهجع ولا يذوق جفنه النوم . فإن الجهد الفكرى والدعائى والسياسى الذى قام
به الدعاة الفاطميون السريون والعلميون ، تمهيدًا لهذا الفتح ، لم يكن بأى حال من
الأحوال بأقل من تجميع الجيوش وتجهيزها بالأموال والسلاح . ولقد بلغ من قوة
نفوذ الحزب الفاطمى الشيعى فى مصر ، زمن الإخشيديين ، أن المعز قد بعث
إليهم بعد وفاة كافور الإخشيدى سنة ٣٥٧ هـ - (سنة ٩٦٧ م) « بالبنود »
(الشارات والأعلام) ، فوزعت على الأنصار والأتباع - وبينهم كثير من جنود
الدولة ، الذين أصبح هواهم وللاؤهم للفاتح المنتظر - وأمرهم بنشرها ورفعها ،
عندما تقترب جيوش الفتح من البلاد . وهذا ما كان . أى أن الغزو لم يأت من
الخارج ، بقدر ما تم من الداخل . ولم يكن جيش جوهر الصقلى بأكثر من السيف

(١) اتعاظ الحنفا : ص ٩٦ .

(٢) الحاكم بأمر الله : ص ٢٨ .

(٣) اتعاظ حنفا : ص ٩٧ ، ١١١ .

الذى كسرت به القشرة الإخشيدية ، لتتكشف مصر عن مجتمع قد حبل منذ مدة ،
وبدرجة كافية ، بهذا العهد الفاطمى الجديد .

٥- ولم يكن الولاء ، الذى منحه الشعب المصرى للدولة الفاطمية الشابة
والفتية ، منذ ما قبل الفتح ، وليد اختيار فكرى انحاز فيه إلى صف التشيع ، وأدار
به ظهره للمجتمع الإخشيدى المملوكى ، الذى فقد الاحترام ومؤهلات البقاء ،
بقدر ما كان وليد إيدانة شعبية لذلك التفسخ والانحيار الاجتماعى والأخلاقى الذى
بلغه هذا المجتمع ، وبخاصة شرائحه الحاكمة والمتسلطة . ويكفى أن نعلم أن
التحلل الأخلاقى قد بلغ بأمرات البيت الحاكم حد المجاهرة بالشذوذ فى التمتع
بمثيلاثمن من الجوارى والنساء ! وأن بلوغ أمر ذلك المستوى من التفسخ إلى أسماع
الفاطميين ، قد شجعهم وأعانهم على تحديد « ساعة الصفر » التى يغزون فيها
البلاد .

فلقد روى أنه كان لأم الأمراء الفاطميين بالمغرب جارية بعثت بها من يبيعها لها
فى أسواق الرقيق بمصر ، فطلب الوكيل فيها ألف دينار ، فجاءت امرأة شابة على
حمار ، فلم تزل حتى اشترتها منه بستائة دينار ، وقيل له : يا مغربى ، هذه بنت
الإخشيد اشترت الجارية تتمتع بها ! وهى ست كافور . فلما عاد (المغربى) أخبر
المعز بذلك ، فأمر بإحضار الشيوخ ، وأمر الرجل فحدثهم بخبر الجارية ، ثم
قال : « يا إخواننا ، انهضوا إليهم ، فلن يحول بينكم وبينهم شىء ، وإذا كان قد
بلغ بهم الترف إلى أن صارت امرأة من بنات ملوكهم تخرج وتشتري لنفسها جارية
تتمتع بها ، فقد ضعفت نفوس رجالهم ، وذهبت الغيرة منهم ، فانهضوا بنا
إليهم . فقالوا : السمع والطاعة ! » (١) .

وإذا كان نموذج الأميرة الإخشيدية الشاذة هذه ، إنما يمثل تجسيداً لتحلل الفئة
الحاكمة فى الدولة الإخشيدية ، فإن موقف المعز وحديثه هذا إنما يمثل فتوة الدولة
الفاطمية الشابة . ويدعم منه أيضاً ويزيده وضوحاً وجلاء ، حديث المعز إلى

(١) المصدر السابق : ص ١٠٠ .

رجالاً دولتها وشيوخ قبائلها عندما يحثهم على عدم الإفراط في العلاقات بالنساء ، ويطلب منهم الاكتفاء بزوجة واحدة ، وعدم الوقوع في حبائل نظم الجوارى والحريم ، فيقول لهم : « الزموا الواحدة ، التي تكون لكم ، ولا تشرهاوا في التكاثر منهن ، والرغبة فيهن فيتنغص عيشكم ، وتعود المضرة عليكم ، وتنهكوا أبدانكم ، وتذهب قوتكم ، وتضعف نحايكم - (أصولكم وأنسابكم) - فحسب الرجل الواحد الواحدة ، ونحن محتاجون إلى نصرتكم بأبدانكم وعقولكم»^(١).

٦- إن الفتح الفاطمي قد كان بالنسبة لمصر والمصريين فتحًا ، ولكنه من نوع جديد .

ففي كل الفتوحات والغزوات التي عرفتها مصر ، سواء أكانت على يد الفرس أم الرومان أم على يد العرب المسلمين زمن عمرو بن العاص ، ثم في عهدى بنى أمية وبنى العباس ، كانت مصر في ظلها لا تزيد عن مجرد « ولاية » تتبع مقر كسرى أو قيصر أو عاصمة الخلافة في المدينة ثم في دمشق ثم في بغداد . وحتى في فترات الاستقلال الذاتي التي بدأها « أحمد بن طولون » ، فإنه قد كان مشوبًا بالكثير من عناصر التبعية لبلاد الخلفاء العباسيين .

أما الفاطميون ، فلقد كانوا فاتحين ، يريدون تحويل مصر إلى عاصمة للإمبراطورية العظيمة التي امتدت تقريبًا بطول بلاد العرب المسلمين وعرضها في ذلك الحين . وإذا كانت مصر قد شهدت الفاتحين الذين يتبعون عملية الفتح باستنزاف خيراتها ، ليعثوا بها إلى القواعد والمدن التي جيشت لفتحها الجيوش ، فإنها قد شهدت ، للمرة الأولى ، فاتحًا لا يرسل خيراتها خارج حدودها ، بل يأتي إليها في موكب جليل مهيب ، بعد فتحها بأربع سنوات ، ومعه أهل بيته وحاشية ملكه ، بل وتوايبت بها رفات آبائه : « المهدي » و « القائم » و « المنصور »^(٢) ،

(١) المصدر السابق : ص ٩٦ . (٢) المصدر السابق : ص ١٣٤ .

تحف بهم قافلة تتكون من ألفى جمل من جمال قبيلة « زناته » تحمل الأموال والمتاع والتحف والرياش ، كما تحمل الدنانير الذهبية التي سبكت ، كى يسهل حملها ، « على شكل طواحين جعل على كل جمل قطعتان » ، حتى « استعظم ذلك الجند والرعية ، وصاروا يقفون فى الطرق لرؤية بيت المال المحمول »^(١) ! فلقد أصبحت مصر عاصمة ، لا ولاية ، وبدأ دورها القيادى فى المنطقة ، لأنه كان قد اكتمل بها يومئذ التعرب والتعريب .

٧- أضف إلى ذلك كله ، بل وفوق ذلك كله ، تلك الأسباب الاقتصادية التى مهدت للفتح الفاطمى ، وجعلت المصريين لا يفتحون صدورهم فقط للفاتح الجديد ، بل ويكاتبونه ويطلبون إليه التعجيل بالمجىء . وهى الأسباب التى بلغت ذروتها فى سلسلة المجاعات التى شهدتها عصر الإخشيديين^(٢) .

● ففى شهر المحرم سنة ٣٣٨ هـ - (سنة ٩٤٩ م) وفى عهد الأمير الإخشيدى أبى القاسم أونوجور (٣٣٤ - ٣٤٩ هـ ، ٩٤٥ - ٩٦٠ م) اشتد الغلاء بالناس ، حتى ثاروا عليه ، وسدوا عليه الطريق ، ومنعوه من صلاة العشاء فى مسجد عمرو ابن العاص .

● وبعد ذلك بثلاث سنوات (٣٤١ هـ - سنة ٩٥٢ م) ، حدثت موجة غلائية جديدة ، تلفت فيها المحاصيل ، وأدت إلى فرار كثير من المواطنين وهجرتهم من البلاد .

● وبعد ذلك بعامين ، جاءت موجة غلائية جديدة ، بلغ فيها سعر « القمح كل وييتين ونصف بدينار »^(٣) ، ثم انعدم وجود القمح نهائياً من أيدي الناس وأدى

(١) المصدر السابق : ص ١٠٠ .

(٢) المقريزى (كتاب إغاثة الأمة بكشف الغمة) : ص ١١ - ١٤ تحقيق د . محمد مصطفى زيادة ، د . جمال الدين الشيال ط . القاهرة سنة ١٩٤٠ م .

(٣) « الويبة » ، قديماً ، تساوى كيلة مصرية بمكاييلنا الحالية . والدينار يساوى ستين قرشاً بعملةنا المصرية الحالية . راجع : د . ضياء الدين الرئيس (الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية) : ص ٣٤٢ ، ٣٧١ ، ٣٧٢ الطبعة الثانية . القاهرة سنة ١٩٦١ م .

سوء الحال بالناس إلى الثورة وامتدت الثورة والمعارك إلى المساجد مما أدى إلى كسر منبر الجامع بمدينة مصر.

● وبعد ذلك بتسع سنوات (سنة ٣٥٢ هـ - سنة ٩٦٣ م) حدث غلاء شديد امتد تسع سنوات ، وكان الحكم يومئذ للأمير على بن الإخشيد (٣٤٩ - ٣٥٥ هـ ، ٩٦٠ - ٩٦٦ م) على عهد كافور الإخشيدى ، ولم يرتفع ماء النيل عامها عن خمسة عشر ذراعاً وأربعة أصابع ، وتضاعف سعر السلع الغذائية إلى ثلاثة أضعاف . «وعز الخبز فلم يوجد ، وزاد الغلاء حتى بلغ القمح كل وبيتين بدينار » .

● وفي العام التالى من سنوات الشدة هذه (سنة ٣٥٣ هـ - سنة ٩٦٤ م) ، اشتد اضطراب ماء النيل وتراوحت زيادته ونقصانه ما بين خمسة عشر ذراعاً وأربعة أصابع وما بين ثلاثة عشر ذراعاً . وعمت الفتن ، وانتشر السلب والنهب ، وتجمهر الناس فى جامع عمرو بن العاص فى يوم الجمعة ، حتى مات رجل وامرأة من شدة الزحام ، ولم يصل الناس يومها صلاة الجمعة بسبب المحنة التى كانت تأخذ منهم بالخناق ! .

● واستمر نقصان ماء النيل فى الأعوام التالية ، حتى بلغ نقصانه الذروة فى العام الذى سبق وفاة كافور الإخشيدى ، حيث لم يتعد اثنى عشر ذراعاً وأصابع ، وهو الأمر الذى لم يقع مثله « فى الملة الإسلامية » كما يقول المقرئى . حتى إذا مات كافور الإخشيدى فى العام التالى (سنة ٣٥٧ هـ - سنة ٩٦٧ م) ، « كثر الاضطراب ، وتعددت الفتن ، وكانت حروب كثيرة بين الجند والأمراء ، قتل فيها خلق كثير ، وانتهبت أسواق البلد ، وأحرقت مواضع عديدة ، فاشتد خوف الناس ، وضاعت أموالهم ، وتغيرت نياتهم ، وارتفع السعر ، وتعذر وجود الأقوات حتى بيع القمح كل وبية بدينار . واختلف العسكر ، فلحق كثير منهم بالحسن بن عبد الله بن طنج ، وهو يومئذ « بالرملة » ، وكاتب الكثير منهم المعز لدين الله الفاطمى ، وعظم الإرجاف بمسير القرامطة إلى مصر ، وتواترت الأخبار بمجىء عساكر المعز من المغرب ، إلى أن دخلت سنة ٣٥٨ هـ - (سنة ٩٦٨ م) ، ودخل القائد جوهر بعساكر الإمام المعز لدين الله . . » .

فهل بعد هذه الصورة التي يقدمها لنا المقرئى عن المجاعات والغلاء اللذين أصابا المجتمع المصرى قبيل الفتح الفاطمى ، مما أدى إلى « تغير نيات الناس » وهروب معظم الجيش والجنود إلى الشام ، ومكاتبه الكثر من الناس - بمن فيهم الجنود - للمعز يطلبون منه تسيير جيشه لفتح البلاد ، هل بعد هذه الصورة ، وخاصة إذا ما أضيفت ملاحظاتها وقسماتها إلى ما قدمنا قبلها من أسباب ، هل بعد ذلك يوجد ما يجعلنا نستغرب تلك السهولة التى فتح بها الفاطميون مصر يومئذ ، وهى التى سبق أن استعصت على جيوشهم من قبل ؟! وهل يستطيع بعد ذلك منصف أن يتخذ من سكوت المصريين على الفتح والفاطحيين ذريعة يحاول عن طريقها النيل من إيجابية المصريين إزاء مصيرهم ووطنهم ؟! وهل نستغرب بعد ذلك إذا علمنا أن الذين جالت بخواطيرهم مقاومة جيش جوهر الصقلى هم جماعة من الإخشيدية فقط ، ولكن معظم الزعماء المصريين آثروا مهادنة الفاتحين والتفاهم معهم ، وقر رأيهم على أن يتقدموا إلى جوهر بطلب الأمان والصلح ، واتفقوا مع الوزير جعفر بن الفرات على أن يتولى تلك المهمة ، وسألوا أبا جعفر مسلم بن عبد الله الحسينى ، أن يكون سفيرهم لدى الفاتح ، فأجابهم إلى ذلك» (١) ١٩

إننا لا نعتقد أن هناك غرابة فى ذلك ، لأن الأسباب التى قدمناها بصدده هذه القضية كافية فى جعلنا نعتقد أن مصر كانت يومئذ قد أصبحت ثمرة ناضجة للقطاف ، ولقطاف الفاطميين على وجه التحديد .

(١) الحاكم بأمر الله : ص ٢٩ .

الفصل الثالث

الوجه المشرق لمصر الفاطمية

● دراسة للعصر الذهبي الذي عاشته مصر في ظل الحكم الفاطمي . . والغنى والترف اللذين شهدتهما مجتمعا . . وما احتفلت به يومئذ من أعياد وما حفلت به من نشاط في مختلف أوجه الحياة وميادينها . .

أزهى العصور المصرية

لله قاهرة المعز، فلإنها بلدٌ فُحِّصَ بالمسرة والهناء
أو ما تَرى في كلِّ قصرٍ مُنيَّةٍ مِن جانبيها ، فهى مُجتمَعُ المنى

كان الفاطميون قد اعتقدوا ، وهم محقون في ذلك تمامًا ، أن فتح مصر ، وإقامة مدينة القاهرة قد حسم المعركة المحتمدة في العالم العربي الإسلامي لصالح تيار التشيع ضد العباسيين السلفيين ، وأيضًا لصالح الاتجاه الفاطمى في الحركة الشيعية ضد القرامطة والزيدية والبويهيين . ولقد عبر ابن هانئ الأندلسى ، شاعر الشيعة الفاطمية العملاق ، عن هذه الحقيقة في بيت من الشعر ، رائع وجامع في ذات الوقت ، عندما قال :

يقول بنو العباس : هل فُتِحَ مِصرٌ؟ ! فقل لبنى العباس : قد فُضِيَ الأمرُ (١)!

وإذا كان اختيار جوهر لمكان القاهرة إلى الشمال الشرقى من العاصمة القديمة (الفسطاط والعسكر والقطائع) محكومًا بذلك « القانون » المصرى القديم ، الذى استنته الروح المصرية ، وحافظت عليه منذ ملكها الفرعونى « مينا » وعاصمته الشهيرة « منفيس » ، فإن اختيار الخلافة الفاطمية ، ممثلة فى المعز لدين الله ، للقاهرة كعاصمة للخلافة كلها ، إنها كان محكومًا بذلك الطموح المشروع ، الذى

(١) اتعاظ الحنفا : ص ٩٧ .

كانت تدكِّيه إمكانيات الدولة الفتية ، لأن تكون القاهرة قلبًا لإمبراطورية عربية إسلامية ، وأن يكون مركزها المتوسط لرقعة الوطن العربي الإسلامي الكبير مؤهلاً جديداً يضاف إلى مؤهلات الخلافة الفاطمية في معركة تجميع الإمارات والولايات العربية حول هذه العاصمة الشابّة ، وذلك المركز الجديد .

وإذا كانت القاهرة قد مرت بفترات من المحن والشدائد في أواخر عصر الدولة الفاطمية ، وفيها بعد هذا العصر ، وحتى في عصرنا الحديث ، فإن الأمر المؤكّد والذى لا يُخْطئه وعى الباحثين المنصفين ، هو أن المعنى الكبير الذى استهدفه الفاطميون من وراء اتخاذ القاهرة عاصمة لخلافتهم - وهو أن تصبح الحاضرة والمناورة والقائدة للعالم العربي الإسلامى ، والقلب النابض للحضارة العربية الإسلامية - إن هذا المعنى الكبير قد عاش للقاهرة وعاشت له القاهرة ، ولم تستطع المحن وفترات الشدة التى شهدتها هذه العاصمة منذ إنشائها إلا أن تزيدا ارتباطاً برسالتها هذه ، وقدرة على الوفاء للملايين الوطن العربي الكبير بما عليها تجاههم من التزامات ومسئوليات .

وإذا كان جوهر الصقل قد قال لأهل مصر ، عندما تم له فتحها ، إن غرضه من هذه الحملة إنما هو « العبور إلى مصر، ليمضى إلى الجهاد لقتال الروم » (١) ، فإننا نجد المعز لدين الله بعد أربع سنوات من هذا الفتح ، وعندما وصل ركبته الملكى إلى القاهرة في رمضان سنة ٣٦٢هـ - (سنة ٩٧٢ م) ، وبعد أن خر لله ساجداً ومصلياً وشاكراً ، يجمع إليه الوجوه والأعيان ليؤكد لهم المعنى الذى تحدث عنه جوهر ، والذى يؤكّد النظرة الجديدة لمصر ، والدور الجديد لعاصمتها ، والرسالة التى تريد الدولة الفاطمية تحقيقها من وراء هذا الفتح المبين . وذلك ، عندما يخطب في الناس قائلاً لهم : إنه لم يرد بدخول مصر زيادة في رقعة مملكته ، ولا زيادة في الأموال والجبايات ، وإنما أراد من وراء ذلك « إقامة الحج والجهاد » (٢) . ومن هنا ، كان ذلك المعنى الجديد الذى أشرنا إليه فيما تقدم لهذا

(١) المصدر السابق : - ١٠٨ .

(٢) اليافعى (مرآة الجنان وعبرة اليقظان) : ج ٢ ، ص ٣٨٤ . ط . حيدر آباد بالهند سنة ١٣٣٩ هـ .

الفتح ، والمركز الجديد الذى أعد لمصر كى تقوم به ، والدور الجديد والهام ، بل الرئيسى ، الذى أصبح على القاهرة أن تؤديه تجاه كل أنحاء بلاد العرب المسلمين .
وإذا كانت مصر قد ظلت تشهد حكم الفاطميين لها ومنها ما يزيد قليلاً على القرنين من الزمان ، وذلك منذ أن فتحت في سنة ٩٦٩م - (سنة ٣٥٨ هـ) ، حتى إعادة الخطبة لبنى العباس على منابرها بواسطة صلاح الدين الأيوبي ، وموت آخر خلفائها العاضد سنة ١١٧١م - سنة ٥٦٧ هـ ، فإننا نستطيع أن نقول : إن نصف هذه الفترة تقريباً كان ، على وجه الإجمال ، عصر ازدهار وحضارة وتقدم ، سجلت فيها مصر الكثير من الأيادي البيضاء على الحضارة العربية الإسلامية ، وأسهمت أثناءها بالكثير من الأنصبة والإنجازات في صناعة التقدم التى أنجزت في ذلك الحين . بينما كان نصفها الآخر ، هو النصف المظلم ، الذى بدأ « بالشدة المستنصرية » التى أتت مجاعتها وفوضاها منذ سنة ١٠٦٦م - (سنة ٤٥٩ هـ) في زمن الخليفة المستنصر (١٠٣٥ - ١٠٩٤ م ، ٤٢٧ - ٤٨٧ هـ) على كل ما هو متحضر ومشرق ومتقدم في هذه البلاد ، والتى لا نغالى إذا قلنا إنها قد فتحت الباب لتلك الصفحات من التخلف والضعف التى امتدت على طول العصور المملوكية ، وحتى الزحف الاستعماري الغربي في العصر الحديث .

وإذا كانت صفحات هذه الحقبة الزمنية ، التى بدأت « بالشدة المستنصرية » ، سيأتى دورها بهذه الدراسة بعد قليل ، فمما لا شك فيه أن تقليب بعض صفحات مصر والقاهرة في عصرها الذهبى الذى استفتحت به حياتها هو أمر هام ، وجدير ببعض الوقفات المتأملة دائماً ، المتأنية حيناً ، الموجزة والسريعة حيناً آخر ، جلاءً لوجه الحقيقة في هذه الحقبة من حقب التاريخ .

الغنى والترف

كان حضور المعز إلى القاهرة بعد إنشائها بأربعة أعوام وتسعة عشر يومًا . وكان موكبه ، الذى سبقت الإشارة إليه ، قد ضم ألفى جمل من إبل قبيلة «زناته» حملت بالمتاع والرياش والأموال ، والذهب الذى سبكت دنائره على هيئة طواحين ، حتى لقد رأينا التاريخ والمؤرخين يتحدثون كثيرًا عن « ذهب المعز » الذى يستعصى على أكثر الناس مقاومة إغرائه . والحق أن الغنى والترف اللذين شهدتهما القاهرة فى عهد المعز والعزیز (٩٧٥ - ٩٩٦ م ، ٣٦٥ - ٣٨٦ هـ) والحاكم (٩٩٦ - ١٠٢١ م ، ٣٨٦ - ٤١١ هـ) ، والظاهر (١٠٢١ - ١٠٣٥ م ، ٤١١ - ٤٢٧ هـ) ، والفترة الأولى من حكم الخليفة المستنصر ، التى سبقت الشدة الشهيرة فى عصره ، الحق أن الغنى والترف اللذين عاشتهما هذه العاصمة الملوكية كانا من الوضوح والبروز بحيث استرعيا أنظار المؤرخين ، شيعة كانوا أم سنيين ، وجميع الرحالة والزوار الذين نزلوا مصر فى ذلك العصر ، موالين للفاطميين كانوا أم معادين . بل إن مرور ألف عام على هذه الحقبة التاريخية بما حملت من أحداث وتطورات لم تستطع أن تخفى عن أنظارنا المعاصرة أمارات الغنى والترف اللذين عاشتهما القاهرة فى ذلك الحين .

وإذا كان المؤرخ السلفى « ابن كثير » ، يرى أن الخلفاء الفاطميين كانوا جبابرة وظلمة ، فإنه لا ينسى أن يذكر لنا أنهم كانوا « أغنى الخلفاء وأكثرهم مالاً »^(١) . ولم

(١) ابن كثير (البداية والنهاية فى التاريخ) : ج ١٢ ، ص ٢٦٧ . ط القاهرة .

يكن هذا الغنى الذى تحلى به الخلفاء الفاطميون ظاهرة ملكية خاصة بهم ، لأن الهدايا والخلع والجود والكرم الذى كانوا يمارسونه ، وفق العادات العربية الأصيلة والتقاليد الملكية ، قد كان يخلق حول قصور هؤلاء الخلفاء طبقة اجتماعية غنية ، وفئات كثيرة تمارس حياة الترف والبذخ ، وترفل فى حلال النعيم الذى أفاضه الفاطميون على هذه الفئات .

ولقد أخذت مدينة القاهرة فى الاتساع ، حتى تجاوزت السور والأبواب التى أقامها من حولها جوهر الصقلى عندما بناها ، وأخذت فى الاقتراب والتداخل مع العاصمة القديمة « مصر » ، التى ظلت تحتفظ بدواوين الحكم ومقار الموظفين ، على حين كانت القاهرة ضاحية ملكية يسكنها الفاطميون . ولقد كان اتساع القاهرة وتداخلها مع « مصر » مسيرين ومصاحبين ، بل ومعبرين ، عن ذلك الاندماج الذى أخذ فى التزايد والعمق والاتساع بين السلطة الشيعية الجديدة والعنصر الأصلى الذى يسكن هذه البلاد .

وعندما زار الرحالة الفارسى ناصرى خسرو (المتوفى - سنة ١٠٦٦ م ٤٥٣ هـ) القاهرة ، ومكث فيها ثلاث سنوات (١٠٤٧ - ١٠٥٠ م) ، سجل لنا صورة رائعة لذلك الغنى والترف اللذين عاشتهما البلاد قبل حدوث الشدة المستنصرية سنة ١٠٦٦ م .

● فهو يحدثنا عن الحوانيت التى كانت القاهرة تضمها ، والتى كان عددها يزيد عن العشرين ألف حانوت ، مملوكة جميعها للخليفة الفاطمى ، وكيف كانت هذه الحوانيت تؤجر للناس ، وكيف كان إيجار الحانوت منها يصل أحياناً إلى عشرة دنانير فى الشهر الواحد .

● كما يحدثنا عن المنازل التى كان الخليفة يملكها فى القاهرة و « مصر » والتى بلغت عدتها نحواً من ثمانية آلاف منزل ، يؤجرها للناس ، وكيف ارتفعت المنازل فى « مصر » حتى بلغ عدد طوابق بعضها أربعة عشر طابقاً ، ثم كيف بلغ تعداد سكان العاصمة نصف ميلون من الأنفس ، وكيف بلغت مساحة « مصر »

وحدها ، كما يقول الرحالة ابن حوقل ، صاحب (المسالك والممالك) والمتوفى سنة ٩٨١م - (سنة ٣٧١ هـ) ثلث مساحة بغداد ، وكيف اتسعت المنازل فيها حتى وسع بعضها مائتى ساكن ، وكيف أُقيمت في أنحائها الحدائق والمتنزهات ، وكيف تحولت بعض أسطح قصور الخليفة وما زرع عليها من أشجار إلى متنزهات على درجة عظمى من الجمال .

● كما يحدثنا خسرو عن تعداد الجمال التى خصصت فى القاهرة لحمل مياه الشرب إلى سكان الشوارع غير الضيقة ، وكيف بلغ تعدادها ١٠٠ ، ٥٢ جمل ، وذلك غير الرجال الذين يحملون القرب المملوءة بالماء على ظهورهم إلى المنازل الواقعة فى الحارات الضيقة ، التى لا تستطيع الجمال أن تصل إليها .

● وكيف بلغ قصر الخليفة ، بل قصوره ، درجة من العظم والضخامة أصبحت معها أشبه بالمدينة عندما ترى من قرب ، وأشبه بالجبل عندما ترى من بعيدا ، وكيف ضمت هذه القصور أكثر من ثلاثين ألف رجل وامرأة ، بينهم عدد غير محدود من الجوارى ، واثنا عشر ألف خادم مأجور . وكيف بلغ تعداد حرس هذا القصر فى كل ليلة ألف رجل ، نصفهم من المشاة ونصفهم من الفرسان .

● وكيف بلغ الأمن والاطمئنان بالناس فى هذه العاصمة حدًا جعل الصيارفة والتجار ، بمن فيهم تجار الجواهر ، يتركون أبواب حوانيتهم ومتاجرهم مفتوحة ، بعد إسدال الستائر عليها عندما يذهبون إلى الصلاة أو إلى قضاء ما يحتاجون إليه .

● وكيف بلغت الثروة ، التى امتلكتها البلاد ، والتى فاقت عليها حدًا جعل ناصرى خسرو يقول : « إننى لم أستطع حصر ثروتها ولا قدرها ، ولم يسبق لى رؤية تلك النعمة فى بلد آخر » (١) .

(١) راجع فى ذلك عبد الرحمن زكى (القاهرة وتاريخها وآثارها) : ص ٣٤ - ٤٣ ، ط . القاهرة سنة ١٩٦٦م . والحاكم بأمر الله : ص ١٢٥ ، ١٢٧ . وتاريخ العرب : ج ٣ ، ص ٧٤١ . وسيرة القاهرة : ص ١٠٥ .

فإذا ما أردنا أن نقدم نموذجًا للغنى ، والتقدم اللذين شهدتهما مصر في الصناعة على عهد الفاطميين ، وأن نذكر بعض عناوين هذه الصفحة من صفحات ثروتها ورفاهيتها ، فإننا نستطيع أن نشير إلى « حوض صناعة السفن » حربية كانت أو تجارية ، الذى بناه الخليفة المعز على النيل بالمكان المسمى « بالمقس » ، والذى كان يقع بالقرب من الأزبكية الآن ، والذى ظل للقاهرة ميناء وترسانة سفن إلى أن تغير مجرى النيل ، وقام فى ذلك المكان حى بولاق . ولقد أبصر ناصرى خسرو بنفسه فى سنة ١٠٤٧م بعض السفن المصرية راسية فى هذا الميناء ، وقال : إن طول الواحدة منها كان ٢٧٥ قدمًا ، أما عرضها فلقدم كان ١١٠ أقدام^(١) !

وصناعة النسيج التى اشتهرت بها مصر منذ أقدم العصور ، والتى جاء الفاطميون فوجدوها مزدهرة ومنتعشة ، فإذا بترفهم وفخامة حياتهم ، وإذا بكثرة أعيادهم ومناسباتهم واحتفالاتهم ، وإذا بتعدد وتعقد مراسيمهم ، تتيح لهذه الصناعة المزيد من الازدهار ، وتفتح أمام العاملين فيها الكثير من مجالات الإبداع والتجويد ، حتى أصبحت فى البلاد وقتها العديد من الحواضر التى تشتهر بهذه الصناعة ، مثل « تيس » و « الإسكندرية » و « دمياط » و « دبيق » و « الفرما » و « الفسطاط » التى كانت تصنع قماشًا راقيًا نسبه إليها الأوربيون عندما أسموه « الفستيانى »^(٢) .

وصناعة الخزف الذى ذكر ناصرى خسرو أنه كان لطيفًا وشفافًا ، حتى بلغت شفافيته درجة حاكت الزجاج ، إذ كان فى ميسور الإنسان أن يرى من باطن الإناء الخزف فى اليد الموضوعه خلفه^(٣) !

* * *

(١) سيرة القاهرة : ص ١٢٩ ، ١٣٠ .

(٢) تاريخ العرب : ج ٣ ، ص ٧٤٨ .

(٣) المصدر السابق : ج ٣ ، ص ٧٤٨ .

ولقد أخذت المنشآت والمساجد والمتنزهات والآثار العظيمة للغنى والترف الفاطمى فى الانتشار فى مختلف أرجاء العاصمة ، كما أخذت عمليات تجديدها وصيانتها والزيادة فيها تأخذ مكانها اللائق فى نشاط الخلفاء الفاطميين وإنجازات الوزراء والمدبرين لأمر السلطنة والسلطان . ويكفى أن نعلم أن فترة حكم الخليفة العزيز التى لم تزد على واحد وعشرين عاماً قد شهدت التجديد والزيادة فى هذه المنشآت :

- ١ - قصر الذهب بالقاهرة .
- ٢ - جامع القاهرة .
- ٣ - بستان سردوس .
- ٤ - الفوارة بالجامع العتيق (جامع عمرو بن العاص) .
- ٥ - القصور بضاحية عين شمس .
- ٦ - المصلى الجديد بالقاهرة .
- ٧ - حصن الرسيين .
- ٨ - المنطرة على الخليج .
- ٩ - قنطرة بنى وائل .
- ١١ - حمامات القاهرة .
- ١٢ - دار صناعة السفن بالمقس .
- ١٣ - المراكب والسفن .
- ١٤ - دار الفطرة (١) .

(١) اتعاظ الحنفا : ص ٢٩٤ ، ٢٩٥ .

كما أدت عناية الفاطميين بتاريخ آبائهم وأجدادهم ، حرصًا منهم على تأكيد الانتساب إلى علي بن أبي طالب وزوجه فاطمة بنت الرسول ، إلى إعطاء المزيد من أسباب الترف والبذخ للأضرحة ، وإسباغ كل ما هو فنى وجميل على المزارات الخاصة بالأولياء والصالحين ، وما يحيط بهذه المزارات من مساجد ودور للعبادة ، حتى تحولت « الجبانة المعروفة بالقرافة » إلى « إحدى عجائب الدنيا ، لما تحتوى عليه من مشاهد الأنبياء . . وأهل البيت . . والصحابة والتابعين والعلماء والزهاد والأولياء » . وإذا كان الفاطميون قد جاءوا إلى القاهرة برفات خلفائهم الذين ماتوا في بلاد المغرب قبل فتحهم لمصر ، واتخذوا من بناء مسجد الحسين وقصة وجود رأسه في هذا المسجد سببًا لمنافسة بغداد العباسيين ، فإنهم قد ساروا شوطاً أبعد في هذا المضمار ، حتى رأيناهم يزعمون أن في الجبانة التى أشرفوا على تعميرها وزخرفتها وتوشيتها « قبر ابن النبى صالح ، وقبر روييل بن يعقوب بن إسحق . . وقبر آسية امرأة فرعون . . ومشاهد أهل البيت . . أربعة عشر من الرجال وخمس من النساء ، « وأقيم » على كل واحد منها بناء حفييل ، فهى بأسرها روضات بديعة الإلتقان عجيبة البنيان ، قد وكل بها قوّة يسكنونها ويحفظونها ، ومنظرها منظر عجيب ، والجرابات متصلة لقوامها في كل شهرًا ^(١) . فإذا كان هذا الوصف الذى قدم بعض الإشارات إلى ما حفلت به هذه « القرافة » التى أصبحت « إحدى عجائب الدنيا » قد كتب عنها عندما زارها ابن جبير على عهد صلاح السدين الأيوبي ، وبعد أن دالت دولة الفاطميين ، وأهملت ، بنسب متفاوتة ، الكثير من منشآتهم وآثارهم ، استطعنا أن نقدر مدى الروعة التى كانت عليها هذه الأضرحة والمزارات فى ظل خلافة بذلت فى سبيل هؤلاء الأموات الشئ الكثير !

بل إن التاريخ ليذكر لنا أن هذا الاهتمام الزائد من قبل الفاطميين بهذه المزارات والمساجد ، قد أتاح فرصة ذهبية للفن العربى الإسلامى كى يتخطى بعض الأسوار التى وضعها أمامه المفكرون والسلفيون والمحافظون . ففى مسجد القرافة الذى كان

(١) ابن جبير (تذكرة الأخبار عن اتفاقات الأسفار) « رحلة ابن جبير » : ص ٤٩ ط . دار التحرير . القاهرة سنة ١٩٦٨ م .

آية من آيات الفن الفاطمي ، نجد لوحة ليوسف الصديق بن يعقوب وهو ملقى في الجب يستغيث ، رسمها له الفنان الفاطمي « القطامي » الذي كان مقرباً إلى الوزير « اليازوري » في عهد المستنصر ، مثله مثل الفنانين « ابن عزيز » و« القاصر » الذين استفادت هذه المزارات بإنتاجهم الفني إلى حد كبير (١).

وعلى الذين لا يستطيعون أن يتصوروا ، أو أن يستسيغوا تلك العناية الزائدة التي بذها الفاطميون بهذه المزارات والمقابر ، أن يعلموا أن ما تبقى لنا من عادات خاصة ببناء « الأحواش » و « المنازل » على المقابر ومن حولها ، وكذلك تنظيم الزيارات لهذه المقابر في هذه المناسبات ، إنها تعود في معظمها إلى ذلك الميراث الذي خلفه لنا الفاطميون . فإذا كان ما نشهده اليوم هو حصيلة ما تبقى بعد ألف عام ، فكم كان الرصيد في هذا الميدان قبل مرور هذه القرون العشرة ؟

وإذا علمنا أنه عندما ماتت زوجة الخليفة العزيز وأم ولده في شهر شوال سنة ٣٨٥ هـ - (سنة ٩٩٥ م) . أقامت ابنتها على قبرها عزاء استمر شهراً كاملاً ، وأقامت على القبر طوال هذا الشهر ، وكان والدها أمير المؤمنين يأتي إلى القبر في كل يوم ، وشارك الناس الخليفة وابنته في حزينها بتوزيع أصناف الأطعمة والحلوى في كل ليلة ، كما رثاها الشعراء ، ونالوا الجوائز على قصائدهم فيها ، تلك الجوائز التي وزعها عليهم العزيز والتي بلغت ألفي دينار (٢) - إذا علمنا ذلك ، أدركنا ذلك القدر من الترف والغنى والبذخ الذي أفاضه الحكم الفاطمي على هذا الجانب من جوانب العمران القاهري في ذلك الزمان .

كما كانت المناسبات الكثيرة والأعياد المتعددة التي أخذ الفاطميون في الاحتفال

(١) سيرة القاهرة : ص ١٣٠ ، ١٣١ .

(٢) اتعاظ الحنفا : ص ٢٨٩ .

بها ، والتي تحولت إلى أعياد قومية ودينية لمصر ، وذلك إلى جانب الأعياد القومية التي كانت تحتفل بها مصر منذ الفراعنة ، وأيضًا الأعياد القبطية والإسلامية السنوية . كانت هذه الأعياد والمناسبات من الكثرة بحيث يجيل للإنسان أنه قد كانت وراء كثيرها ، ومراسيمها ، والاهتمام الرسمي بها ، خطة فاطمية لإغراق الناس وإلهائهم من جانب ، واتخاذها وسيلة لتطويع الجماهير للتعاليم الشيعية من جانب آخر ، كما كانت كذلك مناسبات للمواكب الرسمية والاستعراضات التي تفيض بالوان من البذخ والغنى والترف على عاصمة البلاد . ويكفى أن نعلم أن أعياد مصر ومناسباتها في العهد الفاطمي قد بلغت سنويًا ما يزيد على الثلاثين منها :

- ١ - رأس السنة الهجرية .
- ٢ - المولد النبوي .
- ٣ - أول رجب .
- ٤ - نصف رجب .
- ٥ - أول شعبان .
- ٦ - نصف شعبان .
- ٧ - أول رمضان .
- ٨ - عيد الفطر .
- ٩ - عيد النحر .
- ١٠ - مولد علي بن أبي طالب .
- ١١ - مولد الحسن .
- ١٢ - مولد الحسين .
- ١٣ - مولد فاطمة بنت الرسول .

١٤ - يوم عاشوراء ، وهو يوم ذكرى استشهاد الحسين في كربلاء سنة ٦١ هـ (سنة ٦٨٠ م).

١٥ - عيد فتح الخليج .

١٦ - عيد النيروز.

١٧ - عيد الشهيد .

١٨ - عيد النصر (١٦ من محرم) ، وهو الذى استنته الخليفة الحافظ لدين الله بمناسبة ظهوره من محبسه .

١٩ - المواليد الستة .

٢٠ - ليالى الوقود الأربع .

٢١ - شهر رمضان بأكمله ، وفيه كانت تغلق قاعات الخمارين بمصر والقاهرة .

٢٢ - قافلة الحج .

٢٣ - عيد الغدير (١٨ من ذى الحجة) - نسبة إلى « غدير خم » ، ماء بين مكة والمدينة ، يقال إن الرسول أخى عليه على بن أبى طالب ، أثناء عودتهم من حجة الوداع سنة ١٠ هـ ، وقال يومها : « على منى كهارون من موسى . اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه ، وانصر من نصره ، واخذل من خذله » . ويقال إن أول من احتفل به « معز الدولة بن بويه » بالعراق ، سنة ٣٥٢ هـ - (سنة ٩٦٣ م) . وكان أول احتفال للفاطميين به فى مصر ، سنة ٣٦٢ هـ - (سنة ٩٧٢ م) .

٢٤ - كسوة الشتاء والصيف ، وكانت توزع على أهل الدولة وذويهم .

٢٥ - ميلاد المسيح ، فى ٢٩ كيهك .

٢٦ - الغطاس ، فى ١١ طوبة .

٢٧ - خميس العهد ، وهو عيد مسيحي ، قبل الفصح بثلاثة أيام .

٢٨- السبت والثلاثاء من كل أسبوع ، وكان الخليفة يركب فيها للترنمة .

٢٩- صلاة الجمعة بالأزهر ثلاث مرات من كل عام يحضرها الخليفة .

٣٠- عيد الصليب ، في ١١ توت (١).

أضف إلى ذلك تلك المناسبات ، التي كانت الدولة تستعرض فيها مظاهر قوتها وعظمتها عندما يزورها زائر أجنبي مثلاً ، أو يأتى إلى عاصمتها أحد الولاة الذين تمركز على إدخال الرعب إلى قلوبهم ، حتى لا تحدثه نفسه بشق عصا الطاعة عليها ، فتقيم أمامه عرضاً عسكرياً يحضره الخليفة ، كما نصنع نحن الآن في عصرنا الحديث . والمقرىزى ، يحكى لنا كيف ركب الخليفة العزيز في ١٩ من شعبان سنة ٣٨٣ هـ- (سنة ٩٩٣ م) ، « فوقف على فرسه تحت شراع نصب له ، ومرت العساكر بالخليل والجواشن والخوذ ، فمروا قائداً قائداً ، كل واحد بعسكره في حجابيه وشاكريته (٢) وبنوده ، وكانوا مائة وستين قائداً ، فيهم من عسكره ثلاثة آلاف إلى ألفين- (أى قوات رمزية من الجيش)- وكان الغرض بهذا العرض أن يرى رسول منصور بن زيرى العساكر » (٣).

كما كانت للخلفاء رحلات للصيد ، يخرجون فيها إلى الخلاء في مواكب ذات طابع خاص . والمقرىزى ، يحكى لنا كيف خرج الخليفة العزيز في المحرم سنة ٣٨٣ هـ- (سنة ٩٩٣ م) إلى الجيزة في رحلة من رحلات الصيد ، وكيف اصطاد سبعاً ، وعاد موكبه إلى القاهرة والسبع محمول على بغل بين يدي أمير المؤمنين (٤)!

* * *

(١) خطط المقرىزى : ج١ ، ص ٤٩٠- ٤٩٥ ، واطعاظ الحنفا : ص ١٤٢ ، ٢٧٢ ، ٢٧٦ .

والحاكم بأمر الله : ص ٣٥١ .

(٢) الشاكرى : الساعى ، أو الرسول ، أو السيف العريض المنحنى ذو الحدين .

(٣) اطعاظ الحنفا : ص ٢٧٩ .

(٤) المصدر السابق : ص ٢٧٧ .

فإذا ما شئنا أن نلقى نظرة سريعة وخاطفة على حجم بعض الثروات الفردية الخاصة ، التي كانت تتجمع لدى بعض الأفراد ذوى الصلات الوثيقة بالخلفاء ، والذين يتولون تصريف شئون البلاد ، راعتنا ضخامة أحجام هذه الثروات ، التي تجسد لنا ذلك اللون من الغنى والترف والبذخ ، الذى كان عليه هذا الجانب من جوانب حياة مصر فى ذلك الحين .

● فعندما يختطف الموت إحدى بنات المعز لدين الله ، يجدون فى ثروتها الخاصة من بين ما يجودون ١٠٠٠, ٧٠٠, ٢ دينار !!

● وعندما تموت بنت أخرى من بناته ، يجدون لديها ، ضمن ما يجودون ، حجرة خاصة بالمجوهرات ، بها خمس حقائب من الزمرد ، وثلاثة آلاف صندوق مملوءة بالفضة ، حتى إذا ما أرادوا ختم ثروتها هذه بالشمع ، احتاجوا إلى أربعين رطلاً من الشمع فى عملية الختم هذه (١) !!

● وعندما يتخلص الحاكم بأمر الله ، عن طريق القتل ، من « برجوان » زعيم الجند الصقلية ، الذى كان مستتبداً بالسلطة والسلطان ، عندما كان الحاكم صغيراً فى السن ، يجدون فى تركته من الطرائف والطرف والأموال أشياء تربو على الوصف ، من بينها ألف سروال ديبقى ، وعدد ضخم من الآلات الموسيقية ، وكميات هائلة من التحف والأشياء النادرة (٢) .

● وعندما يولد ليعقوب بن كلس ، وزير العزيز ، ولد ذكر فى سنة ٣٦٩ هـ - (سنة ٩٧٩ م) ، يرسل إليه العزيز هدية تحوى ضمن ما تحوى : مهدين من خشب الصندل المرصع ، وثلثمائة ثوب ، وعشرة آلاف دينار عزيزية ، وخمسة عشر فرساً مسرحاً ملجمة ، ضمنها لجامان من الذهب الخالص ، وقدر كبير من الطبيب ، حتى لقد قدرت هذه الهدية بمائة ألف دينار (٣) .

(١) سيرة القاهرة : ص ١٣٠ .

(٢) شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسى ، المعروف بأبى شامة (كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية) : ج ١ ص ٤٩٤ تحقيق د . عماد حلمى محمد أحمد ، ط . القاهرة ، سنة ١٩٦٢ م .

(٣) اتعاظ الخنفا : ص ٢٥٢ .

● وعندما يغضب العزيز على وزيره هذا ، فيعتقله في ٣ من شوال سنة ٣٧٣هـ - (سنة ٩٨٣م) ، لمدة شهرين ، تتكشف الثروة النقدية السائلة التي وجدت بداره عن ١٠٠, ١٠٠ دينار ، كما يتكشف الأمر عن أن ابن كلس هذا كانت لديه أوراق تخص العطايا التي يخرجها لمريديه ، والتي بلغت ألف دينار شهريا ! ولا عجب ، فلقد كان إقطاعه في السنة ١٠٠, ٣٠٠ دينار ، وذلك غير المباني والرباع ، وغير ثروته الخاصة^(١)!

● فإذا ما مات يعقوب بن كلس هذا في ٥ من ذى الحجة سنة ٣٨٠هـ - (سنة ٩٩٠م) نجده يكفن في خمسين ثوبًا ما بين ومش ومثقل ، (منسوج بالذهب) ، وشرب ديبقى مذهب ، وجفت كافور ، وقاروريتين من مسك ، وخمسين من ماء ورد فكان ما كفن به وخيط به عشرة آلاف دينار^(٢)!

● فإذا ما عقد الخليفة العزيز قرانه على امرأة ليتخذها له زوجة ، نجد أن صداقها قد بلغ مائتي ألف دينار ، كما نجد أن أجر الكاتب لعقد الزواج قد بلغ ألف دينار ، وذلك غير الخلع والهدايا التي أعطيت للقاضي والشهود ، الذين حملوا على البغال ، فطافوا المدينة بالطبول والبوقات !

ويومها ، أخذ العزيز في تلقي الهدايا المناسبة ، لهذه المناسبة ! ولقد جاءت في هدية متولى «برقة» - أي واليها - أربعون فرسًا بتجافيف^(٣) ، وأربعون بغلاً بسرورها ولجمها ، وستة عشر حملاً من المال ، ومائة بغلة ، وأربعمائة جمل^(٤)!

وهي نماذج قليلة ، ولكنها معبرة عن قمة الغنى والترف والبذخ الذي كان طابع جانب من جوانب مجتمع مصر في ذلك الحين ، وهو جانب ارتبط بالخلافة الفاطمية في ذهن الكثير من المؤرخين ، كما أنه قد ترك طابعه وبصماته على معالم مصر وعمارتها ومعيارها وفنها خلال هذه الحقبة من حقب التاريخ .

(١) المصدر السابق : ص ٢٦٢ ، ٢٦٩ . (٢) المصدر السابق : ص ٢٦٨ .

(٣) هي ما يجلب به الفرس ، ويلبسه من سلاح وأدوات تقيه الجراح .

(٤) المصدر السابق : ص ٢٥٢ .

الفصل الرابع الحياة الفكرية في مصر الفاطمية

- دراسة في الطابع العربي لحياة مصر الفكرية يومئذ، ودلالته على نضج عملية التعريب فيها . . والمؤسسات الفكرية والعلمية والتعليمية التي قامت بها .

الحياة الفكرية

هناك زعم يسوقه البعض ، مدعيًا فيه ذبول الحركة الفكرية والأدبية في مصر على عهد الفاطميين ، وانعزال القاهرة « عن تقدم الدراسات الإسلامية في القرنين ، الحادى عشر والثانى عشر (الميلاديين) » ، ثم ينتهى هذا الزعم إلى القطع بأنه « قلما ظهر هناك قادة فى محيط الفكر أو الأدب العربى تحت الحكم الفاطمى » (١) . ونحن لا نريد هنا البحث عن مدى الصدق ومدى الزيف فى هذا الادعاء ، لأننا نرفضه من أساسه ، ونرى فيه نظرة سطحية أثمرتها عوامل عدة ، كان فى مقدمتها :

١ - ذلك التحيز الذى نجده فى كتب التاريخ ، التى كتبها المؤرخون السلفيون « السنيون » عن مصر والقاهرة فى زمن الفاطميين . وهو موقف يجب أن يبرأ منه الباحث المعاصر ، لأنه لا ناقة له ولا جمل فى هذه الخلافات التى فرقت العالم الإسلامى ، فكريًا وسياسيًا ، حينًا من الدهر ، والتى زالت ، منذ قرون ، بواعثها وأسبابها ، ولم يعد مستساعًا أن نظل فى القرن الخامس عشر الهجرى أسرى لحزازات ، ولدت أسبابها ثم ماتت فى زمنى على بن أبى طالب ومعاوية بن أبى سفيان . وهذا الموقف المتحيز ، الذى يغمط الحياة الفكرية والأدبية المصرية على عهد الفاطميين حقها من الإنصاف والتقدير ، هو الذى أوحى ، ولا يزال يوحي

(١) سيرة القاهرة : ص ١١٨ .

لبعض الباحثين بمثل هذه المزاعم التي لا ترقى إلى مصاف الحقائق ، ولا تثبت للبحث والتمحيص .

٢- إن عملية التأريخ للحياة الفكرية والأدبية ، في حضارتنا العربية الإسلامية ، قد أصيبت بداء الاهتمام الأكثر من اللازم بمجتمع العاصمة المركزية التي كانت مقرًا للخلافة ، وعلى الأخص في بغداد ، وبداء الإهمال الأكثر من اللازم لمجتمعات المدن الأخرى ، برغم ما حفلت به من نشاطات فكرية عبّرت الكثير من العصور . وعلى الرغم من أن القاهرة كانت - على عصر الفاطميين - إنما تمثل بالنسبة للعالم العربي عاصمة الخلافة الأقوى والأوسع انتشارًا ، فإن انهيار هذه الخلافة على يد سلطة سلفية « سنية » محافظة ، هي سلطة الدولة الأيوبية ، التي كان ولاؤها للخلافة العباسية في بغداد ، وكذلك كتابة تاريخ هذه الفترة من قبل مؤرخين سلفيين « سنيين » ، قد جعلهم لا يعترفون للفاطميين بمرتبة الخلافة وإمارة المؤمنين ، وإنما رأوا فيهم « أدعياء » مختصين للسلطة . بل لقد بلغت الجزأة ببلاط الخلافة العباسية ببغداد إلى الحد الذي جعل الخليفة القادر بالله يجمع فقهاء بلاطه في سنة ٤٠٢ هـ - (سنة ١٠١١ م) ليصدروا فتوى يطعنون فيها في انتساب الفاطميين إلى أهل بيت الرسول ! فإذا ما جاءت سنة ٤٤٤ هـ - (سنة ١٠٥٢ م) ، صدرت حول هذا الموضوع ببغداد وثيقة ثانية ، زيد فيها أن نسب الفاطميين لا يعود إلى علي بن أبي طالب ، وإنما إلى اليهود أو المجوس (١) ! ومن ثم ، فلقد عوملت مصر عند تأريخ الحركة الفكرية والأدبية في حضارتنا العربية الإسلامية معاملة الإقليم ، وعوملت القاهرة عاصمة الإقليم ، التي تغلب عليها متغلب « دعى » حيناً من الدهر ، ثم عادت تخطب على منابرها للخليفة الشرعى المتربع على عرش بغداد !

٣- إن الآثار التي سجلت فيها الحركة الفكرية المصرية ثار هذه الفترة ،

(١) الحاكم بأمر الله : ص ٤٧- ٧٥ .

والكتب والمجلدات التي كان بإمكانها أن تصبح الآن السنة ناطقة بالأنشطة الفكرية لتلك الحقبة الزمنية ، قد أصابها التلف والسلب والنهب والضياع مرتين . أولاهما ، عندما حدثت الشدة المستنصرية ، التي بدأت بمجاعة سنة ١٠٦٦م - (سنة ٤٥٩ هـ) . وثانيتهما ، عندما انتهى العصر الفاطمي على يد صلاح الدين الأيوبي ، وعهد بمكتبة القصر الفاطمي التي « كانت خزائنها مشتملة على قريب مائة وعشرين ألف مجلدة » ، عهد بها « للأمير بهاء الدين قراقوش . . وهو تركي لا خبرة له بالكتب ، ولا دربة له بأسفار الأدب » ، فأصبحت « كالميراث مع أبناء الأيتام ، يتصرف فيها بشره الانتهاب والالتهماء »^(١) ، مما أدى إلى ضياع هذا التراث ، ذلك الضياع الذي أحدث العديد من الثغرات في العديد من الأبنية الفكرية في حضارتنا العربية الإسلامية ، كما خلق وهما شاع بين الكثيرين عن ذبول الحياة الفكرية والأدبية في مصر على عهد الفاطميين .

وإذا كان حديثنا هذا عن الحياة الفكرية في مصر الفاطمية ، هو إثباتا لوجودها وأهميتها بأدلة السلب والنفي لحجج الخصوم ، فلإن لدينا العديد من أدلة الإيجاب التي نستطيع بواسطتها أن نبرز وجهها ظل مشرقاً رديحاً طويلاً من الزمن ، ويجب أن يعود له إشرافه في الدراسات التي تقدم عن حياتها في ذلك الحين .

العلماء والأدباء :

ومن بين هذه الأدلة التي نسوقها لإثبات دعوانا هذه ، أسماء تلك الكوكبة من علماء ذلك العصر ومفكره وأدبائه وشعرائه ، والذين يكفى الاطلاع على قائمة بأسمائهم لإقامة الدليل على غنى الحياة الفكرية لمصر يومئذ بالتوايح والأفذاذ . وإذا كان من المتعذر علينا أن نورد في هذا الإطار كل الأسماء التي لمعت في ذلك العصر بميدان الفكر والثقافة ، فإننا نقدم فقط بعض هذه الأسماء ، كنموذج ودليل جيدي البرهنة على صدق ما نقول ، وذلك مثل أسماء :

(١) كتاب الروضتين : ج ١ ، ص ٥٠٧ ، ٥٠٨ ، ٦٨٦ ، ٦٨٧ .

- عز الملك المسيحي : واسمه محمد بن عبد الله بن أحمد الحراني (٣٦٦ - ٤٢٠ هـ ، سنة ٩٧٦ - سنة ١٠٢٩ م) ، وهو مؤرخ تولى ديوان الترتيب منذ سنة ٣٩٨ هـ - (سنة ١٠٠٧ م) .
- أبو الحسن علي بن يونس : (المتوفى سنة ٣٩٩ هـ - سنة ١٠٠٩ م) ، الفلكي والمنجم والأديب والشاعر ، والذي ألف كتاب « الزيج الكبير » للحاكم بأمر الله خصيصًا .
- أبو علي الحسن بن الحسن بن الهيثم : (المتوفى سنة ٤٣٠ هـ - سنة ١٠٣٨ م) واضع علم البصريات .
- الحسن بن زولاقي : (٣٠٦ - ٣٨٧ هـ ، ٩١٩ - ٩٩٧ م) ، المؤرخ الذي عاصر الدولتين الإخشيدية والفاطمية ، والذي كتب سيرة المعز وغيرها من الكتب التي اقتبس منها المتأخرون .
- أبو الحسن علي بن محمد السابشتي : (المتوفى سنة ٣٩٠ هـ - سنة ٩٩٩ م) ، صاحب كتاب الديارات .
- أبو عبد الله اليمنى : (المتوفى سنة ٤٠٠ هـ - سنة ١٠٠٩ م) المؤرخ ، صاحب تاريخ النحاة ، وسيرة جوهر القائد .
- منصور بن مقشر : الطبيب المسيحي ، الذي عاصر العزيز والحاكم بأمر الله .
- محمد بن أحمد بن سعيد : الطبيب .
- أبو يعقوب بن نسطاس : الطبيب .
- محمد بن القاسم بن عاصم : شاعر الحاكم بأمر الله وجليسه .
- أبو عبد الله محمد بن سلام بن جعفر القضاعى : (المولود في أواخر القرن الرابع ، والمتوفى سنة ٤٥٤ هـ - سنة ١٠٦٢ م) وهو مؤرخ ، وفقه شافعى المذهب ، ومحدث ، تولى القضاء في عهد المستنصر ، واشتهر بكتابه عن خطط مصر وأثارها .

- أبو الحسن على بن إبراهيم بن سعيد الحوفى : (المتوفى سنة ٤٣٠ هـ - سنة ١٠٣٨ م) ، النحوى ، اللغوى ، الأديب .
- أبو العباس أحمد بن هاشم المصرى : (المتوفى سنة ٤٤٥ هـ - سنة ١٠٥٣ م) المحدث والعالم بالقراءات .
- أبو الحسن طاهر بن أحمد المصرى : المعروف بابن بابشاذ ، (والمتوفى سنة ٤٦٩ هـ - ١٠٧٦ م) .
- أبو الحسن الرشيد بن الزبير : (المتوفى سنة ٥٦٣ هـ - سنة ١١٦٧ م) ، الشاعر ، المنطقى ، المهندس ، الرياضى .
- الحافظ أبو طاهر السلفى : (المتوفى سنة ٥٧٦ هـ - سنة ١١٨٠ م) بعد عمر زاد عن مائة سنة ، المحدث ، الناقد ، الراوية ، والذي استقر بالإسكندرية منذ سنة ٥١١ هـ - (سنة ١١١٧ م) .
- هاشم بن العباس المصرى : الشاعر الذى تميز بتصوير الطبيعة والإقليم .
- ظافر بن القاسم الجذاعى الإسكندرى : (المتوفى سنة ٥٢٩ هـ - سنة ١١٣٤ م) ، الشاعر .
- أبو الغمر محمد بن على الهاشمى : (المتوفى سنة ٥٤٤ هـ - سنة ١١٤٩ م) ، الشاعر .
- محمود بن إسماعيل أبو الفتح الدمياطى : (المتوفى سنة ٥٥١ هـ - سنة ١١٥٦ م) ، الشاعر ، وكاتب الإنشاء فى عهد القاضى الفاضل .
- الصالح طلائع بن رزيك : (المتوفى سنة ٥٥٦ هـ - سنة ١١٦٠ م) ، الشاعر الحماسى النزعة ، والفقيه المصنف فى فقه الشيعة ، والذي تولى الوزارة ولقب «بالمملك الصالح» .
- أبو المعالى عبد العزيز بن الحسين بن الحباب الأغلبى السعدى التميمى :

الشاعر، الملقب بالجليس ، لمجالسته الخليفة العاضد ، (المتوفى سنة ٥٦١ هـ - سنة ١١٦٥ م).

● القاضي موفق الدين يوسف بن محمد المصرى ، المعروف بابن الخلال : (المتوفى سنة ٥٦٦ هـ - سنة ١١٧٠ م) الشاعر الذى تولى ديوان الإنشاء زمن العاضد ، وتعلم على يديه القاضى الفاضل .

● أبو الفتوح نصر الدين قلافس الإسكندرى : (٥٣٢ هـ - سنة ٥٦٧ هـ ، سنة ١١٣٧ م - سنة ١١٧١ م) ، الشاعر .

● ابن المأمون البطائحي : الكاتب ، المؤرخ .

● ابن القيسرانى ، أبو محمد عبد السلام ، المعروف بابن الطوير المصرى : صاحب (نزهة المقلتين فى أخبار الدولتين) الذى ينقل عنه المقرئى .

● أبو الفتوح الدمياطى : الأديب الناصر البليغ ، شيخ القاضى الفاضل .

● الوزير أبو القاسم على بن منجب ، الشهير بابن الصيرفى : (المتوفى سنة ٥١٢ هـ - سنة ١١٤٧ م) ، الكاتب ، المؤرخ ، صاحب (الإشارة لمن نال الوزارة) وغيره من الكتب .

● أبو على عبد الرحيم بن على ، الشهير بالقاضى الفاضل : (المتوفى سنة ٥٩٦ هـ - سنة ١١٩٩ م) ، كاتب الإنشاء على عهد العاضد وصلاح الدين .

● أمية بن عبد العزيز بن أبى الصلت : (المتوفى سنة ٥٢٨ هـ - سنة ١١٣٣ م) ، الأديب ، الشاعر ، الذى وفد على مصر من الأندلس ، وألف عن علماء مصر وأدبائها .

● أبو بكر محمد بن الطرطوشى : (المتوفى سنة ٥٢٠ هـ - سنة ١١٢٦ م) الكاتب السياسى الذى نوّه به ابن خلدون ، والذى وفد على مصر زمن الأمر بأحكام الله .

● أبو حامد أحمد بن محمد الأنطاكى : (المتوفى سنة ٣٩٩ هـ - سنة ١٠٠٨ م) ، الشاعر ، الذى وفد على مصر .

- أبو الحسن على بن عبد الواحد البغدادي : (المتوفى سنة ٤١٢ هـ - سنة ١٠٢١ م) ، الشاعر ، الذى وفد على مصر .
- أبو محمد عمارة بن أبي الحسن اليمنى : (المتوفى سنة ٥٦٩ هـ - سنة ١١٧٣ م) ، الشاعر ، المؤرخ ، الفقيه الشافعى ، الذى وفد على مصر من اليمن سنة ٥٥٠ هـ - (سنة ١١٥٥ م) .
- أبو كامل شجاع بن أسلم : (القرن الرابع الهجرى ، العاشر الميلادى) العالم فى الجبر .
- على بن رضوان : (٩٨٠ - ١٠٦١ م ، سنة ٣٧٠ - ٤٥٣ هـ) الطبيب .
- أوثيقيوس : بطريك الإسكندرية (٩٣٩ م - سنة ٣٢٨ هـ) ، المؤرخ .
- الجوانى : المؤرخ .
- أبو صالح الأرمنى : المؤرخ .
- القاضى أبو الحسن على بن النعمان : (المتوفى سنة ٣٧٤ هـ - سنة ٩٨٤ م) ، الفقيه .
- يعقوب بن كلس : المؤرخ ، والفقيه ، والوزير .
- القاضى الشريف أبو محمد عبد الله العثمانى الديداجى : (المتوفى بالإسكندرية سنة ٥٧٢ هـ - سنة ١١٧٦ م) ، الشاعر ، الناثر ، المحدث ، الراوية .
- الرشيد أحمد بن على : الشاعر .
- عمار بن على الموصلى : صاحب كتاب (المنتخب فى علاج العين) وهو من علماء عصر الحاكم بأمر الله .
- القاصر : الرسام على عهد وزير المستنصر اليازوردى .
- ابن عزيز : الرسام على عهد المستنصر .

● القطامي : الرسام على عهد المستنصر .

وهي كوكبة من الأسماء لطائفة من الأعلام الذين ازدانت بهم الحياة الفكرية والأدبية والثقافية في العصر الفاطمي . فإذا ما كررنا ما سبق أن ذكرناه من أن هذه الأسماء إنما هي مجرد أمثلة فقط لا غير ، استطعنا أن ندرك القدر الكبير والجليل الذي كان لهذه القسمة من قسرات مجتمع مصر والقاهرة في ذلك الحين .

الأزهر :

وثانى الأدلة التى نسوقها على عمق وأصالة الحركة الفكرية والأدبية فى ذلك العصر ، هو قيام المؤسسات العلمية العملاقة التى شهدتها العاصمة يومئذ وبخاصة الأزهر ، كجامعة فكرية وثقافية .

فلقد بدأ كمسجد جامع للمدينة الجديدة ، بدأ جواهر الصقلى فى إنشائه فى العام التالى مباشرة للفتح ولبدء تأسيس القاهرة ، وبالتحديد فى ٣ من أبريل سنة ٩٧٠م - (جمادى الأولى سنة ٣٥٩ هـ) . وتم بناؤه وافتتح للصلاة بعد عامين فى ٢٤ من يونيو سنة ٩٧٢م - (رمضان سنة ٣٦١ هـ) (١) .

وبعد أن حضر الخليفة المعز لدين الله إلى القاهرة ، بدأت بوادر أولية لاستخدام هذا المسجد الجامع فى أداء دور فكرى وعقائدى منسجم مع أيديولوجية الدولة الجديدة . فجلس به قاضى القضاة على بن النعمان فى شهر صفر سنة ٣٦٥ هـ - (سنة ٩٧٥م) ليملى على الدارسين والجمهور مختصراً أعده والده فى فقه الشيعة ، سمى «بالاقتصار» . وحضر حلقات الدرس هذه جمع عظيم من الدارسين والجمهور (٢) . فإذا ما توفى على بن النعمان فى سنة ٣٧٤ هـ - (سنة ٩٨٤م) ، واصل عملية التدريس هذه أخوه القاضى «محمد بن النعمان» المتوفى سنة ٣٨٩ هـ - (سنة ٩٩٨م) .

(١) سيرة القاهرة : ص ١٢١ والقاهرة : تاريخها وآثارها : ص ١٧ .

(٢) اتعاظ الخنفا : ص ٢٢٧ .

حتى إذا كان عهد الخليفة العزيز ، وتولى يعقوب بن كلس منصب الوزارة ، نجده يشير على مولاه أن يحول هذا المسجد إلى جامعة علمية وفكرية للعلوم العقلية والنقلية ، الدينية والدينيوية ، ولفكر الشيعة على وجه الخصوص . وأشرف ابن كلس على ترتيب كل ذلك ، فوظف فيه العلماء والقراء ، ورتب لهم الأموال والنفقات .

حتى إذا كان عام سنة ٩٨٨م ، وجدناه قد استوى جامعة مكتملة الأسس والمقومات و « أصبح قبلة للعلماء . . وللطلاب دون تمييز في الجنس أو اللغة أو الطبقة »^(١) . وأخذ يؤتى ثماره في الحياة الفكرية في ذلك التاريخ . وليس أدل على أهمية الدور الفكرى الذى أداه الأزهر في الحياة العقلية للقاهرة الفاطمية ، من ذلك الموقف الذى وقفه منه صلاح الدين الأيوبي عندما أحدث بمصر الانقلاب السلفى « السنى » بعد عهد الفاطميين ، إذ أوقف الدراسة في هذه الجامعة لفترة من الزمن^(٢) ، حتى تمكن من تغيير مناهجها وعلومها والقائمين على التدريس فيها ! وحتى استطاع أن يجعل من المدارس السنية التى فتحها منافسًا خطيرًا لهذا المعهد العتيذ .

دار الحكمة :

أما دار الحكمة ، فهى تلك الأكاديمية العلمية والفكرية التى أنشأها الحاكم بأمر الله فى مارس سنة ١٠٠٥م - (جمادى الآخرة سنة ٣٩٥هـ) ، فى المكان المواجه لمسجده - (الجامع الأقرم) - بدرب الخضيرى بباب التبانين . ولقد ضمت هذه الأكاديمية فروعًا وأقسامًا للقرآن وعلومه ، وللعلوم الدينية ، وللفلك ، والطب ، والنحو وعلوم اللغة المختلفة .

(١) الحاكم بأمر الله : ص ١٥٥ ، ٣٦٣ وسيرة القاهرة : ص ١٢١ .

(٢) سيرة القاهرة : ص ١٣٢ .

ولقد كانت دار الحكمة هذه تشمل مناهجها في بداية عهدها تدريس العلوم الدينية والإلهية من وجهتى النظر الشيعية والسنية ، ثم اقتضرت فيما بعد على الاتجاه الشيعى ، تمثيلاً مع اتجاه الدولة الفكرى ، وبسبب من المشكلات التى حدثت بين فقهاء هذين الاتجاهين فى ذلك الحين .

ولعل من أروع ما ازدانت به هذه الأكاديمية ، هى تلك المكتبة التى تعد بحق من مفاخر مصر الفاطمية وعاصمتها القاهرة ، والتى جمع فيها الحاكم بأمر الله كل ما حوت القصور والدور من كتب ومجلدات ، حتى لقد تجمع فيها من الكتب « ما لم ير مثله لأحد قط من الملوك ، وأباح (الحاكم بأمر الله) ذلك كله لسائر الناس على طبقاتهم » . وقام بوقف قطاع كبير من أملاكه الخاصة عليها وعلى الأزهر وعدد من المساجد الأخرى . وبذلك ، أُجريت الأرزاق والمرتبات على علماء دار الحكمة وموظفيها وخدمتها ، ووضعت تحت يد الباحثين والدارسين والنساج ، بالمجان ، سائر ما يحتاجون إليه من الأوراق والأقلام والمحابر والأحبار.

وأخذت هذه الأكاديمية تقوم فى الحياة الفكرية بدور هام وعملاق . وبعد قيامها بسنوات ثمانية (سنة ٤٠٣ هـ - سنة ١٠١٢ م) ، أخذ علماءها المتخصصون يحضرون إلى مجلس الحاكم فى القصر للمناقشة والمناظرة والجدل والمدارسة ، كل جماعة متخصصة فى فرع من فروع العلم على حدة ، وكانوا جميعاً يعودون وقد خلع عليهم الحاكم ومنحهم العطايا والهبات^(١) .

فإذا علمنا أن دار الحكمة هذه قد أُفردت فيها للنساء الدراسات مجالس خاصة بهن ، وأضفنا إلى هذه الحقيقة الهامة ذلك الدور الكبير الذى قامت به فى ميدان الدعوة الفاطمية ، بل والسلطة السياسية باليمن ، زمن الخليفة المستنصر ، السيدة الحرة الملكة « أروى بنت أحمد الصليحي » ، والتى كانت حاكمة وداعية من دعاة الفاطميين باليمن ، بل ومشرفة على توجيه الدعاة فى هذه المنطقة وما

(١) وراجع خطط المقرئى : ج ١ ، ص ٤٥٨ ، ٤٥٩ . والحاكم بأمر الله : ص ١٥٥ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٣٩٣ .

يليهما من الجنوب الشرقى ، والتي بعث إليها المستنصر بالكثير من الرسائل - (السجلات) - التي تبرز دورها هذا وتزكيه - إذا وضعنا هذه الحقيقة في الاعتبار ، أدر كنا أن الدعوة الشيعية الفاطمية ، في نظرتها للمرأة ودورها ، إنما كانت تفرق بين نوعين من النساء :

أولهما : ويشمل أغلبية النساء ، اللاتي يتخذن من مؤهلات الأنوثة سلاحًا يضمن به وسائل العيش والراحة والرفاهية في هذه الحياة ، وهن « أرباب الحجال » المحجبات المخدرات ، اللاتي تتفق في النظرة إليهن الدعوة الشيعية الفاطمية ، في عصرها مع النظرة الشرقية التقليدية بوجه عام .

وثانيهما : ويشمل القلة من النساء اللاتي جلسن في دار الحكمة للدرس والتفقه وتحصيل العلوم ، أو انخرطن في سلك الدعاة والمبشرين والمنظمين السياسيين ، أو اضطلعن بمسئوليات سياسية وإدارية في جهاز الحكم ، كما حدث للسيدة الحرة الملكة « أروى بنت أحمد الصليحي » ، التي يتحدث عنها المستنصر فيقول : « إننا » أخرجنا إياها من زمرة ربات الحجال إلى سياسة الدولة وتقدير الرجال ، لما لعل نور إيمانها ، ونيتها وإيقانها ، وأنها بالزهد معروفة ، وبالتقى موصوفة ، فاستحقت ما خولناها ، وقامت بشكر ما أنلناها ، ورعت أحوال المؤمنين رعاية الدعاة ، وسلكت في تربيتهم مسلكًا قارب مسلك الهداة»^(١).

ولقد بلغ من أهمية هذه الأكاديمية العلمية والفكرية ، ومن اهتمام الحاكم بأمر الله بها ، وتركيز الجهد الفكرى للدولة فيها ، أن ذبل دور الجامع الأزهر بجانبها ، حتى وجدنا في سجل الوقفية التي وقف بها الحاكم بعض أملاكه بمصر والقاهرة على هذه الدار ، والأزهر ، وبعض المساجد الأخرى ، والذي حوى تفاصيل المنصرف على الأزهر ، وجدنا في هذه التفاصيل كل ما يتعلق بالأزهر كمسجد جامع ، لا كجامعة علمية وفكرية ، كما كان في عهد الخليفة العزيز^(٢).

(١) السجلات المستنصرية : ص ٧٦ . تقديم وتحقيق د . عبد المنعم مجاهد ط . القاهرة ١٩٥٤ م .

(٢) راجع نص هذه الوقفية في ذيل كتاب (الحاكم بأمر الله) : ص ٣٩٠ - ٣٩٣ .

وإذا كان الأزهري ، كجامعة فكرية ، قد تعرض للإغلاق المؤقت من قبل صلاح الدين الأيوبي ، بعد زوال النظام الشيعي الفاطمي ، فإن دار الحكمة هذه قد تعرضت للإغلاق الدائم والمؤبد من قبل الأيوبيين . بل لقد أغلقها الأفضل بن بدر الجمالي ، في عهد نفوذ الوزراء والجند ، وخفوت صوت العقل والفكر ، في مرحلة اضمحلال الدولة الفاطمية . ثم أُعيدت مرة أخرى في زمن الخليفة الأمر بأحكام الله في ربيع الأول سنة ٥١٧ هـ - (سنة ١١٢٣ م) في مكان آخر غير مقرها الأول ، بجوار القصر الشرقي الكبير ^(١) ، ولم تنزل عامرة حتى زالت الدولة الفاطمية .

المكتبات :

وثالث الأدلة التي نسوقها على عمق الحركة الفكرية وأصالتها في مصر الفاطمية ، يتمثل في تلك المكتبات التي جمعها الفاطميون ، وبذلوها للعلماء والمتعلمين ، والتي اعتبرها المؤرخون السلفيون ، المعادون للفاطميين ، إحدى عجائب الدنيا في ذلك الحين ، « لأنه لم يكن في جميع بلاد الإسلام دار كتب أعظم من الدار التي بالقاهرة » . فإذا علمنا أن قائل هذا هو المؤرخ الأيوبي المعادي للفاطميين المعروف بأبي شامة ، وأنه قد قال هذا القول قبل أن يدخل التتار بغداد فيخربوا مكتباتها بما يقرب من المائة عام ، علمنا عظم هذه الثروة الفكرية التي اشتملت عليها مكتبات القاهرة في ذلك التاريخ ، حتى قيل إن مكتبة القصر الفاطمي وحدها ، عندما حكم صلاح الدين الأيوبي ، وبعد أن نُهب منها الكثير زمن الشدة المستنصرية ، « كانت تحوى ألفى ألف وستائة ألف كتاب (أى ١١٠,٦٠٠,٢ كتاب) .

(١) خطط المقرئزي : ج ١ ، ص ٤٤٥ .

فإذا أردنا أن نعلم أبعاد قول المؤرخين بأن الفاطميين قد جعلوا مكتباتهم مبدولة لسائر الناس من سائر الطبقات ، وكيف تغلبوا ، عن طريق قسم النسخ الذي أُقيم في دار الحكمة ، على عقبه انعدام الطباعة في ذلك العصر ، وقلة عدد نسخ الكتاب المخطوط ، فإنه يكفي أن نعلم أن هذه المكتبة قد ضمت من كتاب تاريخ الطبرى ٢٠٠ ، ١ نسخة مخطوطة ، إحداها بخط محمد بن جرير الطبرى نفسه ، وإحدى نسخ هذا الكتاب قد اشتراها الخليفة العزيز بهائة دينار . . وأن كتاب « العين » للخليل بن أحمد كانت له فيها ثلاثون نسخة ، إحداها بخط المؤلف . . وأن « جهرة بن دريد » كانت لها فيها مائة نسخة . . كما كان في هذه المكتبة « من الكتب الكبار . . ما يشتمل كل كتاب على خمسين أو ستين مجلداً » . . وأنه قد كانت لهذه المكتبة « خزائنها في القصر ، مرتبة البيوت ، مقسمة الرفوف ، مفهرسة بالمعروف » . . وأنه بعد مرور خمس سنوات على زوال الدولة الفاطمية ، وفي سنة ٥٧٢ هـ (سنة ١١٧٦ م) ، وبعد أن مورست فيها أعمال السلب والنهب من قبل الجنود « الغز » والأتراك ، وتحت إشراف الأمير بهاء الدين قراقوش « وهو تركى لا خبرة له بالكتب ، ولا دراية له بأسفار الأدب » ، وبعد أن احتال عليه الدلالون والسماسرة ، فأوهموه أن « هذه الكتب قد عاث فيها العث . . ولا غنى عن تهويتها ونفضها . . وكان مقصود دلالى الكتب أن يوكسوها ويخرموها ويعكسوها » ، حتى تمول إليهم بأبخس الأثمان ، بعد كل هذا الذى حدث لهذه المكتبة طوال خمس سنوات ، ينقل أبو شامة عن عماد الدين الكاتب ، محمد بن محمد الأصفهانى ، المؤرخ ، صاحب (البرق الشامى) ، أنه رأى « خزائنها مشتملة على قريب مائة وعشرين ألف مجلدة ، مؤبدة من العهد القديم مخلدة ، وفيها بالخطوط المنسوبة ما اختطفته الأيدي ، واقتطعه التعدى ، وكانت كالميراث مع أبناء الأيتام ، يتصرف فيها بشره الانتهاب والالتهم ، ونقلت منها ثمانية أحمال إلى الشام ! » (١) .

(١) كتاب الروضتين : ج ١ ، ص ٥٠٧ ، ٥٠٨ ، ٦٨٦ ، ٦٨٧ . واتعاض الحنفا : ص

فإذا علمنا أن بقايا هذه المكتبة ، مثلها مثل بقايا قصور الفاطميين ، قد ظلت معروضة للبيع مدة عشر سنوات ، أدركنا عظم هذا الصرح الفكرى الذى بنته مصر الفاطمية ، وفداحة الخسارة التى أصابته عندما زالت هذه الدولة من الوجود .

فن الكلمة :

ورابع الأدلة على عمق هذه الحركة الفكرية والأدبية وأصالتها فى مصر الفاطمية ، ذلك المستوى الذى بلغه النشر الأدبى ، ووصلت إليه كتابة الرسائل ، وجودة صناعة الإنشاء تحت إشراف عدد من الأدباء والعلماء الذين أشرفوا وقاموا بالعمل فى ديوان الإنشاء ، من أمثال ابن الخلال والقاضى الفاضل ، وغيرهما من الذين تولوا عمل هذا الديوان .

ونحن إذا أردنا أن ندرك ، فى إيجاز ، المستوى الأدبى الرفيع الذى وصلت إليه هذه « الصناعة » الأدبية ، فما علينا إلا أن نقرأ حديث القاضى الفاضل عنها ، وعن قصته معها ، عندما يقول :

إنه قد « كان فن الكتابة فى زمن بنى عبيد (الفاطميين) غُضًّا طريفًا . وكان لا يخلو ديوان المكاتبات من رأس برأس مكانا وبيانا ، ويقوم لسلطانه بقلمه سلطانا ، وكان من العادة أن كلا من أرباب الدواوين إذا نشأ له ولد وشدا شيئًا من علم الأدب ، أحضره إلى ديوان المكاتبات ليتعلم فن الكتابة ، ويتدرب ويرى ويسمع . . فأرسلنى والدى ، وكان إذ ذاك قاضيًا بغير عسقلان ، إلى الديار المصرية فى أيام الحافظ ، أحد خلفائها ، وأمرنى بالمسير إلى ديوان المكاتبات . وكان الذى يرأس به فى تلك الأيام ، رجلا يقال له ابن الخلال . فلما حضرت الديوان ، ومثلت بين يديه ، وعرفته من أنا وما طلبى ، رحب بى وسهل ، ثم قال : ما الذى أعددت لفن الكتابة من الآلات ؟ فقلت : ليس عندى شىء سوى أنى أحفظ القرآن العزيز وكتاب الحماسة . فقال : وفى هذا بلاغ . ثم أمرنى

بملازمته . فلما ترددت إليه ، تدرت بين يديه . ثم أمرني بعد ذلك أن أحل شعر الحماسة ، فحللته من أوله إلى آخره ، ثم أمرني أن أحله مرة ثانية فحللته « (١) .

وإذا كانت الرسائل الستة والستون ، التي ضمها كتاب (السجلات المستنصرية) ، إنما تقدم لنا نموذجاً لجودة « فن الكتابة » النثرية في ذلك العصر ، فإن الأمر الذي لا شك فيه أن الشعر العربي في مجتمع القاهرة الفاطمية قد بلغ درجة من الرقة والجدالة تستحق الدراسات المفصلة ، في غير هذا المكان ، وتستوجب منا هنا وقفة سريعة نعطي فيها النماذج الصغيرة والجيدة الدلالة على صدق ما نقول . .

فالشاعر أبو المعالي عبد العزيز بن الحسين بن الحباب يتحدث عن السيوف ، فيقول :

وَمِنْ عَجَبٍ أَنَّ السُّيُوفَ لَدَيْهِمْ تَحِيضُ دِمَاءً ، وَالسُّيُوفُ ذَكَورًا
وَأَعْجَبُ مَنْ ذَا أَتَاهَا فِي أَكْفِهِمْ تَأْبِجُ نَارًا ، وَالْأَكْفُ بِحُورًا

كما يخلف لنا سخرية شعرية لاذعة من طبيب لم يحسن علاجه من الحمى التي أصابته ، فيقول فيه :

وَأَصْلُ بَلِيَّتِي مَنْ قَدْ غَزَانِي مِنْ السُّقْمِ الْمَلْحِ بِعَسْكَرِينَ
طَيْبٌ طِبُّهُ كَغَرَابِ بَيْنِ يُفَرِّقُ بَيْنَ عَافِيَتِي وَبَيْنِي
أَتَى الْحَمَى وَقَدْ شَاخَتْ وَبَاخَتْ فَرَدَّ لَهَا الشَّبَابَ بِنَسَخَتَيْنِ
وَدَبَّرَهَا بِتَدْبِيرٍ لَطِيفٍ حَكَاهُ عَنْ « سَنَانٍ » أَوْ « حَنِينِ »
وَكَانَتْ نَوْبَةً فِي كُلِّ يَوْمٍ فَصَيَّرَهَا ، بِحِذْقِي ، نَوْبَتَيْنِ (٢) !

(١) كتاب الروضتين : ج ١ ، ص ٤٨٧ ، ٤٨٨ .

(٢) المصدر السابق : ج ١ ، ص ٣٦٠ - ٣٦٢ .

كما كان للشعر الغنائي في مجالس اللهو والطرب والصفاء بالقاهرة في ذلك العصر ، مكان رحب وموقع جميل . وهذه جارية جميلة حسناء اشتراها من بغداد تميم ابن الخليفة المعز لدين الله ، وعاشت في القاهرة ، بعد أن خلقت لها حبيبا عاشقا في بغداد . فإذا كانت إحدى الليالي ، غنت للأمير في مجلس طربه شعرا قالت فيه :

وبدأ له من بعيد ما انتقل الهوى برق نالتي من هنا لمعائه
يبدو لحاشية اللواء ، ودونه صعب الدرى متمنع أركانه
فبدأ لينظر كيف لآخ ، فلم يطق نظرا إليه وشده أشجانه
فالتأثر ما اشتملت عليه ضلوعه والماء ما سمحت به أجفانه!

حتى إذا طرب الأمير ، وسألها ماذا تريد ، طلبت منه السماح بأن يغنى هذا الشعر في ربوع بغداد . وبعد وجوم ، أجابها إلى طلبها ، فيما كان منها عندما اقترب الركب من بغداد إلا أن غافلت حراسها وهربت إلى حيث الحبيب العاشق (١) .

ولولا الحرص على الإيجاز الذي يفرضه حيز هذه الدراسة ، لقد مننا من شعر القاهرة في ذلك العصر الناذج العديدة والجيدة التي تعكس المستوى الرفيع الذي بلغه الشعر يومها ، على يد كثير من الشعراء الذين سبقت إشارتنا إلى أسماء بعضهم منذ حين .

* * *

وإذا كانت هذه الأدلة التي سقناها هنا على أصالة الحركة الفكرية العربية في مصر الفاطمية ، إنها تجسد أبعاد هذه الحركة طولاً وعرضاً وعمقاً ، فإن هناك ملاحظة نود أن نختم بها هذه الجزئية من جزئيات هذه الدراسة ، تتعلق بمدى شمول هذه الحياة الفكرية العربية لكل المواطنين ، الذين سكنوا العاصمة يومئذ بوجه خاص ، أو قطنوا مصر يومها على وجه العموم . وبمعنى مباشر : هل

(١) البداية والنهاية : ج ١١ ، ص ٢٩٣ ، ٢٩٤ .

كانت هذه الحياة الفكرية شاملة للمسلمين والأقباط؟ أم كانت قسمة للمجتمع المسلم فقط من دون المصريين المسيحيين؟

ونحن نستطيع أن نقطع في الإجابة بأن هذه الحياة الفكرية الخصبة والغنية ، إنما كانت قسمة للمجتمع المصرى بأكمله . وذلك ، لأن عملية « تعرب » هذا المجتمع ، كانت قد تمت تمامًا ، واكتملت ملاحظها في القرن « العاشر الميلادى ، حتى كان رجال الكنيسة القبطية يضطرون إلى وضع كتاباتهم باللغة العربية ، لكي يفهمها أهل دينهم .

وقد كان أكبر عامل في انتشار الثقافة العربية في مصر ، بتلك الدرجة الناجحة التى لم تبلغها سابقتها الهلينية ، هو نزوح العرب الرحل إليها ، نزوحًا تدريجيًا واسع النطاق ، واستقرارهم بها ^(١) .

وبذلك ، نستطيع أن نقول : إن قيام القاهرة كعاصمة للخلافة الفاطمية ، بعد أن كانت مصر مجرد ولاية عباسية أو أموية ، إنما كان مرحلة هامة من مراحل تعميق عملية التعريب التى كانت قد تمت بالفعل . ومن ثم ، فإن حركة مصر الفكرية التى نتحدث عنها ، إنما كانت من العمق والأصالة والشمول لكل سكانها ، بحيث يمكن أن نعتبرها إطارًا قوميًا ساهم مساهمة قوية في بلورة الشخصية المصرية العربية منذ ذلك الحين . بل لقد كانت هذه المرحلة من مراحل تاريخ مصر ، هى الإيدان بنضج الشخصية العربية لمصر ، بعد أن فتحها العرب المسلمون قبل هذا التاريخ بعدة قرون .

(١) جورج كبرك (موجز تاريخ الشرق الأوسط) : ص ٣٧ . ترجمة عمر الإسكندرى ط . الألف كتاب . ومحمد عمارة (فجر اليقظة القومية) : ص ١٧٤ ، ١٧٥ ط . القاهرة سنة ١٩٦٧م .

الفصل الخامس

"الدولة الفاطمية في مصر"

- دراسة لجهاز « الدولة » الفاطمية الذي حكم البلاد . . وملاحظه الإدارية . . وجهازه العسكري . .

جهاز الدولة الفاطمية

على الرغم من أن نظام الشورى الإسلامى ، الذى أشاد به القرآن الكريم ، فيما يتعلق بالإدارة السياسية وطريقة اختيار الحكام ، والبت فى معضلات الأمور ، والذى طبقه المسلمون فى عصر الخلفاء الراشدين ، على الرغم من أن هذا النظام قد تحول إلى خرق ممزقة على يد الدولة الأموية ، ثم على أيدي العباسيين ، حينما أصبح الأمر « ملكًا » ونظامًا ملكيًا ، وافترق معناه ومبناه عن معنى « الخلافة » ، ومبناها ^(١) ، وعلى الرغم من أن الكثير من قسامات النظام الملكى المعتمد على الوراثة والاستبداد ، قد شابت نظم الحكم الإسلامية فى هاتين الدولتين ، فإننا نستطيع أن نقول : إن القاعدة التى قامت عليها نظرية « الإمامة » عند الشيعة - والفاطميون أحد تياراتها الفكرية والسياسية - إنما تمثل أوضح تجسيد لهذه النظرية الإقطاعية الشهيرة عن « الحق الإلهى ، والتفويض « الممنوح للإمام من قبل الله ، والذى لا يحده ولا يقيدته المحكومون بأى نوع من الحدود أو أى قدر من القيود .

فلقد كان الإمام لدى هذه الفرقة الإسلامية ، التى تأثرت كثيرًا ، وفى هذا الموضوع بالذات ، بالتراث الإقطاعى للأكاسرة الفرس الساسانيين ، إنما يصير إمامًا تبعًا للوصية التى أوصى بها الرسول عليه الصلاة والسلام إلى جدهم على بن أبى طالب ، والتى تسلسلت وانتقلت ، بالحلول تارة ، والتجسد أخرى ، فى نسله ،

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ١٦٥ ط . القاهرة سنة ١٩٠٤ م .

حتى وصلت - لدى الفاطميين - إلى عبيد الله المهدي (٩٠٩ - ٩٣٤ م ، ٢٩٧ - ٣٢٢ هـ) ، أول خلفائهم بالمغرب ، ثم القائم (٩٣٤ - ٩٤٦ م ، ٣٢٢ - ٣٣٤ هـ) ، ثم المنصور (٩٤٦ - ٩٥٢ م ، ٣٣٤ - ٣٤١ هـ) ثم المعز لدين الله ، الذى اتخذ القاهرة عاصمة ، ومصر مركزاً لهذه الخلافة الشيعية الإسماعيلية الفاطمية .

وليس معنى ذلك ، أن جهاز الدولة الذى عرفته مصر لم يكن يعرف التسلسل الوظيفى ، ولا أنه كان فردياً بشكل مطلق ، وضيق الحدود والإطار . وذلك ، لأن ترمى أطراف الدولة ، واتساع المهام الداخلية والخارجية أمامها ، قد فرضا عليها السير فى الطريق الطبيعى للسياسة والإدارة والعسكرية .

الجهاز السياسى والإدارى

شهدت مصر نظاماً سياسياً وإدارياً : معقداً ومتشابكاً ، ضم جهازاً سياسياً وإدارياً تمثل فى عدد من الدواوين (الوزارات) ، أهمها :

أ - ديوان الإنشاء والمكاتبات .

ب - ديوان الجيش والرواتب ، وكان قاصراً على الموظفين المسلمين .

ج - ديوان الجهاد ، وكان خاصاً بالأساطيل البحرية ، حربية كانت أم مدنية .

د - ديوان المجلس ، وكان مختصاً بالمراجعة على الدواوين الأخرى .

هـ - ديوان النظر ، وكان مختصاً بشئون الأموال .

و - ديوان التحقيق ، وكانت اختصاصاته هى المقابلة على الدواوين المختلفة .

ز - ديوان الأوقاف والأجباس .

ح - ديوان المواريث والفرائض .

ط - ديوان الصعيد ، وكان مختصاً بمصر العليا .

- ى- ديوان أسفل الأرض ، وكان مختصًا بالوجه البحرى .
- ك- ديوان الثغور ، وكان مختصًا بالموانى البحرية والنهرية .
- ل- قاضى القضاة ، وهو بمثابة وزير العدل ، ومن خلفه قضاة النواحي والأقاليم .
- م- داعى الدعاة ، وكان بمثابة فيلسوف الدولة ، والقائم على نشر أيديولوجيتها .
- ن- المحتسب ، وكانت له الولاية فى كثير من أمور التجارة الداخلية ، والنظافة ، والتنظيم العمرانى ، والإشراف على مراعاة الأخلاقيات التى استقر المجتمع على احترامها .
- س- ديوان الشرطة ، وكانت مقسمة إلى الشرطة العليا ، وتختص بالقاهرة ، والشرطة السفلى ، لمدينة مصر^(١) .

كما عرف النظام السياسى للدولة الفاطمية منصب « الوزارة » ، وكان الوزير يمثل الرجل الثانى فى الدولة ، بعد أمير المؤمنين ، وله الإشراف والتنفيذ والتفويض فى كل ما يتعلق بسائر الدواوين .

كما عرف هذا النظام السياسى كذلك « السلاطين » ، و « الملوك » ، الذين يوليهم الخلفاء حكم إقليم من الأقاليم . وقد كانوا يحملون هذه الألقاب الفخمة ، أو يقتصر على مجرد تلقيبهم بالعمال والولاة تبعًا لشأنهم ولشأن ذلك الإقليم ، وتبعًا لما عليه الخلفاء من قوة أو ضعف .

أما عن العلاقة بين كل هذه الأجهزة والرعية من جانب ، وبين أمير المؤمنين من جانب آخر ، فإننا نستطيع أن نلخصها فى أنه قد كانت للخليفة حقوق قبل الملوك والسلاطين والوزراء والولاة ومديرى الدواوين والرعية بأكملها . وكانت هذه الحقوق تتمثل فى السمع والطاعة فى كل شىء من جانبها . كما أنه لم يكن للرعية أية حقوق على هؤلاء الخلفاء !! وكان على الرعية أن تطيع وأن تعطى ، وعلى

(١) الحاكم بأمر الله : ص ٣٢٦-٣٤١ . واتعاظ الحنفا : ص ٢١٦ .

الوزراء أن يدبروا السياسة وأن يتولوا الجباية للأموال من الرعية ، وعلى العمال هم كذلك أن يقوموا بالجباية للأموال من الرعية . أما الملوك ، فلقد كان لهم تدبير السياسة في أقاليمهم ، والطاعة لأمر المؤمنين . وداعى الدعاة حميد الكرمانى يلخص هذه القضية بقوله : « إن طاعة الإمام جامعة للملوك والرعايا ، والرعايا تجميع الإعطاء والطاعة ، وإن الوزير يجمع السياسة والجباية ، والجباية جامعة للوزراء والعمال ، وإن الملك يجمع الطاعة والسياسة ، والعمال يجمع الجباية والإعطاء ، وإن الإعطاء جامع للعمال والرعايا ، وإن السياسة مشتركة » (١).

الجهاز العسكرى

كما شهدت مصر نظاماً عسكرياً : تمثل في الجيوش القبلية والمملوكية المجلوبة من بلاد غير عربية ، والتي لعبت دوراً كبيراً في فتوحات الفاطميين ، ثم آل بها الأمر إلى السيطرة على مقدرات هذه الدولة وتحويلها إلى شكل فارغ بلا مضمون ، كما سيأتى فيما بعد .

ولقد كانت طبقات رجال الجيش الفاطمى ، تتدرج في مراتب ثلاث :

أ- الأمراء ، وهم بمثابة مقدمى الجيوش .

ب- خواص الخليفة ، وهم رؤساء حرسه الخصوصى .

ج- طوائف الأجناد المختلفة .

كما كان يطلق على قائد الجيش لقب « الإسفهلار » ، وهو اصطلاح عسكرى يتضح معناه عندما نعلم أن مقطعه الأول : « إسفه » هو كلمة فارسية معناها : مقدم ، وأن مقطعه الثانى والأخير : « سلار » هو كلمة تركية معناها : عسكر ، فهو إذن مقدم العسكر وقائد الجيش .

(١) الحاكم بأمر الله : ص ٣٢٨ ، (نقلًا عن كتاب (راحة العقل) لحميد الدين الكرمانى : ص ٢١٤).

ولقد كانت طوائف الجند ، التي اعتمدت عليها الدولة الفاطمية في فتوحاتها ، والتي شاركت كذلك في الصراعات الداخلية التي شهدتها في عصر اضمحلالها ، كثيرة ومتعددة بتعدد القبائل المغربية والنواحي والأقاليم التي امتد إليها نفوذ الفاطميين . فهناك أجناد من كل من « كتامة » و « معمورة » و « زويلة » ، وهي قبائل مغربية . وهناك كذلك « البرقية » ، نسبة إلى منطقة برقة . وهناك الأجناد « الروم » و « الترك » و « السديلم » و « السودانيون » ، نسبة إلى هذه الأجناس . وهناك كذلك « الجودرية » ، أتباع جودر ، و « العطوفية » ، أتباع عطوف ، و « اليانسية » ، أتباع ياناس ، وكذلك « الوزيرية » و « المحمودية » و « الباطلية » و « المنصورية » وغيرهم كثير .

وإذا كان الجيش الفاطمي ، الذي فتح مصر ، قد بلغت عدته مائة ألف مقاتل ، فإن الحروب التي ظلت قائمة بين الدولة الجديدة وأعدائها الخارجيين ، قرامطة كانوا أم عباسيين أم صليبيين ، قد احتفظت لهذا الجيش بالكثير من النفوذ والحجم الكبير ، حتى جاء وقت أسلمت فيه الدولة الفاطمية روحها للقوة والجنديّة التي أخذت تتحكم فيها منذ أن تولى بدر الجمالي السلطة والسلطان ، زمن الخليفة المستنصر سنة ١٠٧٥ م - سنة ٤٦٨ هـ .

ولقد بلغ تعداد الجيش الفاطمي ، زمن سلطان « الوزير » طلائع بن رزيك ، الذي لقب نفسه بلقب « الملك الصالح » ، حسب رواية المقرئزي ٦٠٠٠ ، ٧٦ ، جندي ، من بينهم ١٠٠ ، ٤١ من الفرسان . وذلك ، غير القوة البحرية التي بلغت أحياناً ١٠٠ قطعة خاصة بالقتال والجيش ، وذلك غير خمسين مركباً بحرياً مدنيّاً كانت مملوكة لأمير المؤمنين^(١) .

(١) المصدر السابق : ص ٣٢٦ - ٣٤١ . وكتاب الروضتين : ج ١ ، ص ٤٠٨ . وتاريخ العرب : ج ٣ ، ص ٧٤٢ .

الفصل السادس عن الحاكم بأمر الله

- دراسة عن مغزى تصرفات الحاكم بأمر الله . .
وماذا كانت تعنى المراسيم والقوانين التى
أصدرها ، تلك التى اتهمه البعض بسببها
بالمرض والجنون . .

قِسَمَات هَامَّة و طَرِيفَة

ونحن نعتقد أنه لا يمكن لعين الباحث أن تتصفح مراحل حياة مصر الفاطمية ، دون أن يسترعى انتباهها تلك القسَمَات التي ميزتها في عهد الحاكم بأمر الله (٩٩٦ - ١٠٢١ م) . كما لا يمكن الكتابة عنها ، إلا إذا تناولت هذه الصفحة من حياتها بالدرس والتقييم ، خصوصاً أن شخصية الحاكم ، وأسلوبه في إدارة شئون الحكم ، والمراسيم الشهيرة التي أصدرها ، والتي عاد فألغى بعضاً منها ، كل ذلك قد جعله في أذهان الكثيرين شخصية غامضة وشاذة ومهوشة التفكير .

ولقد تراوحت وجهات نظر المؤرخين والباحثين حيال هذه الشخصية ما بين اعتبارها مصابة بضرب « من ضروب المالنخوليا ، وفساد التفكير » ، كما ذهب إلى ذلك يحيى الأنطاكي في تاريخه والنويري صاحب (نهاية الأرب) ، وإلى أنه كان مصاباً « بجفاف في دماغه » ، كما ذهب إلى ذلك المقرئ في خططه ، وإلى اعتباره مجنوناً ، ولكن مصلحاً كذلك ، أو مصلحاً ، ولكن على طريقته الخاصة ، أو مكافحاً للانحلال « الشامل الذي سرى إلى مجتمعه بقوانين بوليسية صارمة ، وأحياناً غريبة شاذة » (١) .

(١) راجع آراء الأنطاكي ، والنويري ، وميللر ، ودوزي ، في كتاب (الحاكم بأمر الله) : ص ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٦٩ ، ١٧٣ .

ونحن نرى أن شخصية الحاكم بأمر الله ، شخصية تاريخية قد أصابها الكثير من الظلم والتعسف في التفسير والتحليل ، من قبل الكثير من المؤرخين والباحثين . بل ونرى أن هذا الظلم قد انسحبت أذياله على القاهرة ومصر ، فبدت في ثوب من السخرية والاضطراب ، وجو من الإجراءات التي لا رابط لها ولا منطق وراءها ، خلال فترة حكم هذا الخليفة التي امتدت ربع قرن من الزمان . ومن ثم ، كانت لوقفنا هذه عند هذه الصفحة من كتاب حياة مصر أهمية كبرى للإنصاف وجلاء حقيقة الأحداث والمراسيم التي وقعت وصدرت في تلك السنوات .

ونحن نعتقد أن ترتيب أحداث هذه الفترة ، والنظر إليها على ضوء أيديولوجية الدولة الفاطمية ، وعلى ضوء الأحداث التي عاصرتها ، ومن خلال مراعاة العلاقات المتشابكة والمعقدة التي تقوم عادة بين القوانين والمراسيم وبين البيئة والأحداث والأشخاص والصراعات ، هو المنهج الكفيل بتبديد الجزء الأكبر من الغموض والغرابة والاستغراب التي تصيب القارئ عندما تدفع إليه أحداث هذه السنوات ركامًا مختلطًا دونها ترتيب أو تبويب أو تفسير .

شخصية الحاكم . . والتحديات التي واجهته :

١ - فالحاكم بأمر الله ، الذي ولد في ٢٣ من ربيع الأول سنة ٣٧٥ هـ - (١٣ من أغسطس سنة ٩٨٥م) ، كانت تبدو عليه منذ حداثة سنة مظاهر التفوق والذكاء وقوة الشخصية ، وقسمات الإنسان المتميز عن الأشباه والأقران . وكان صاحب اهتمامات ثقافية وفكرية مبكرة ، لا في مجال الفلسفة والتشيع والفلك والتنجيم فقط ، كما اشتهر عنه ، بل وفي مجال التذوق الأدبي للشعر والنثر والمشاركة في مجالسها ومخالطة أعلامها في ذلك الحين^(١).

(١) المصدر السابق : ص ٩١ .

٢- ولقد كانت خلقة الحاكم بأمر الله تساعدك كذلك على الإحساس بأنه شخص متميز عن الآخرين ، وتؤكد لديه هذا الإحساس . فلقد وصفته الروايات المعاصرة له ، فقالت : « كان منظره مثل الأسد . وعينه واسعتان شهلاوان - (بخالط سواد عينيه زرقة) - وإذا نظر إلى الإنسان يرتعد لعظم هيئته . وكان صوته جهيرًا مخوفًا . . ولقد كان جماعة يعمدون للقاءه في أمور تضطربهم إلى ذلك ، فإذا أشرف عليهم سقطوا على الأرض وجلا منه ، وفحموا عن خطابه ! » (١) .

٣- وعندما بويع هذا الصبي المتفوق ، ابن الأحد عشر عامًا ، بالخلافة في ٢٨ من رمضان سنة ٣٨٦ هـ- (سنة ٩٩٦ م) ، وجد نفسه واقعًا تحت أسر شديد وثقيل يتمثل في سلطة « برجوان » الصقلبي ، الذي تقف خلفه الأجناد الصقلبية ، و« الحسن بن عمار » زعيم قبيلة كتامة ، الذي تشد من أزره جنود كتامة الأشداء الكثيرون ، وذلك بالإضافة إلى نفوذ ثالث الأوصياء ، قاضى القضاة محمد بن النعمان ، والذي كان أقل هؤلاء الثلاثة سلطة وسلطانًا .

وليت الأمر قد وقف عند هذا الحد . بل لقد شهد الحاكم احتدام الصراعات القبلية ، والنزاعات القائمة على المصالح المادية بين كل من « برجوان » و« الحسن ابن عمار » . وتجاهل الفريقان وجوده كأمر للمؤمنين . وانضم إلى « برجوان » كل الناقلين على قبيلة كتامة من أمثال « بنجوتكين » ، و« ابن الصمصامة » . وقبل أن يمر عام على تنصيب الحاكم خليفة ، وصلت الحرب الباردة بين الفريقين إلى حرب ساخنة ، دارت رحاها بالقاهرة في شعبان سنة ٣٨٧ هـ- (سنة ٩٩٧ م) ، وهي الحرب التى انتهت بهزيمة كتامة ، وعلو نجم « برجوان » والصقلبية ، واستبدادهم بكل أمور البلاد .

٤- ولقد تصرف « برجوان » بإزاء الحاكم ، بعد أن خلا له الجو ، أو خيل إليه ذلك ، تصرفات آذت مشاعر الخليفة الشاب ، وجرحت كرامة الفتى الذى

(١) المصدر السابق : ص ١٠٤ .

يستشعر في نفسه التفوق الذاتى ، فضلاً عما تمنحه إمارة المؤمنين ، والبيعة بالخلافة ، وصلاحيات « الحق الإلهى » ، من شحنات عزة وكرامة ، تجعل من تصرفات « برجوان » معه مواد متفجرة وحرارة تنتظر اشتعال الفتيل . .

ويكفى أن نعلم أن « برجوان » قد حجب الحاكم فى هذه الفترة عن الناس ، وقطع صلته بجهاز الدولة ، وصيره معزولاً فى قصره . ولقد بلغ الحاكم عنه أنه يلقبه « بالوزغة » الصغيرة - (الحية) وبلغ به الاستهتار والتعالى حدًا جعله يتوجه إلى الحاكم راكبًا وثانيًا رجله على عنق فرسه ، وجاعلاً بطن قدمه ، وفيها الخف ، قبالة وجه الحاكم !! .

ومن هنا ، فإننا لا نجد غرابة فى أن يدبر الحاكم اغتيال « برجوان » هذا ، وأن ينفذ ذلك فى ١٦ من ربيع الثانى سنة ٣٩٠ هـ (إبريل سنة ١٠٠٠ م) ، وأن يعلى هذا الحدث الهام من قدر المغاربة ونفوذهم ، ويقلل من شأن الصقالبة والأترك فى البلاد .

٥ - ولقد كانت الخطوة الهامة ، التى خطاها الحاكم بعد إزاحة « برجوان » من طريقه ، متمثلة فى ذلك المرسوم الذى أذاعه على الناس ، والذى طلب فيه من الشعب أن يتعامل معه مباشرة ، والذى يمنع فيه أن يكون جهاز الدولة أو أى من زعمائها حائلاً بين الإمام وبين الاتصال المباشر بالجهامير . وهو المرسوم الذى يقول فيه :

« معاشر من يسمع هذا النداء من الناس أجمعين . إن الله ، وله الكبرياء والعظمة ، أوجب اختصاص الأئمة بما لا يشركها فيه أحد من الأمة . فمن أقدم بعد قراءة هذا المنشور على مخاطبة أو مكاتبة لغير الحضرة المقدسة ، سيدنا ومولانا ، فقد أحل أمير المؤمنين دمه . فليبلغ الشاهد الغائب ، إن شاء الله ! » (١) .

(١) المصدر السابق : ص ١٠١ .

لمن كان القتل ؟

٦ - وإذا كان قتل الحاكم لبرجوان قد حدث في شهر ربيع الثانى سنة ٣٩٠هـ، فإن ذلك لا يعنى أنه كان ينتصر بذلك للمغاربة والكتاميين ضد الصقالبة والأتراك ، الذين قادهم برجوان فى إذلال المغاربة منذ سنة ٣٨٧ هـ ، لأن الحاكم إنما كان يبغي إزالة كل مراكز النفوذ والعصبيات والتكتلات القبلية والجنسية التى كانت تزخر بها العاصمة ، بسبب من تعدد أجناس الأجناد . ولذلك ، فإننا نراه يبدأ منذ سنة ٣٩٠ هـ فى سلسلة من الاغتيالات الفردية ، والمجازر الجماعية ، التى تستهدف القضاء على خطر الفوضى التى تهددت البلاد ، وخطر سيطرة الأجناد على مقدرات الأمور فيها :

- فى ١٤ من شوال سنة ٣٩٠ هـ - (أكتوبر سنة ١٠٠٠ م) ، دبر اغتيال الحسن ابن عمار ، زعيم كتامة ، وقائد الكتاميين والمغاربة .
- وفى سنة ٣٩١ هـ - (سنة ١٠٠٠ م) ، دبر قتل مؤدبه : أبى التميم سعيد بن سعيد الفاروقى .
- وفى سنة ٣٩٢ هـ - (سنة ١٠٠١ م) ، دبر قتل ابن أبى نجدة ، الذى كان يتولى ديوان الحسبة .
- وفى محرم سنة ٣٩٣ هـ - (سنة ١٠٠٢ م) ، دبر قتل أبى على الحسن بن عسلوج ، وكان من أكابر المباشرين لشئون المال فى الدولة . وأبوه عسلوج ، هو الذى ولاه المعز خراج البلاد فى سنة ٣٦٤ هـ - (سنة ٩٧٤ م) .
- وفى جمادى الأولى سنة ٣٩٣ هـ - (مارس سنة ١٠٠٤ م) ، دبر قتل وزيره المسيحى فهد بن إبراهيم ، الذى خلف فى تركته نقدًا سائلًا بلغ ما حمل منه إلى الحاكم ٥٠٠,٠٠٠ دينار ، رفض الحاكم أن يأخذ منها شيئاً ، وردّها لأخيه قائلاً : « أنا لم أقتله على مال » .
- وفى رجب سنة ٣٩٣ هـ - (سنة ١٠٠٢ م) ، دبر قتل أبى طاهر محمود بن النحوى ، وكان يتولى أعمال الشام ، مشهورًا بالظلم والتعسف والتجبر .

● حتى إذا جاءت سنة ٣٩٤ هـ - (سنة ١٠٠٥ م) ، نجد الحاكم يشن فيها نشاطًا واسعًا ، يتخلص عن طريقه من أكثر أعيان الدولة وكبار رجالاتها ، وكذلك من عدد كبير جدًا من أتباعهم وأنصارهم^(١) . وفي هذا العام نفسه ، أصدر الحاكم مرسومًا ينكر فيه على الناس مخاطبته بلقب « مولى الخلق أجمعين »^(٢) .

مراسيم الحاكم الشهيرة :

٧ - فإذا جاءت سنة ٣٩٥ هـ ، وجدنا الحاكم بأمر الله يصدر فيها عدة مراسيم نستطيع أن نقسمها إلى مجموعتين متميزتين :

الأولى : المراسيم الاقتصادية ، المتعلقة بالإصلاحات النقدية التي ثبت بها سعر الدينار على أساس ٢٦ درهماً من الدراهم الزيادة ، وكذلك المتعلقة بضبط المكاييل والموازين^(٣) . ولقد كانت لهذه المراسيم الاقتصادية علاقة بالمجاعة التي حدثت بمصر في ذلك العام ، بسبب نقصان مياه النيل ، حيث ارتفعت الأسعار واضطربت المعاملات وأسعارها^(٤) .

والثانية : تلك المراسيم الاجتماعية والأخلاقية والدينية ، التي نسجت حولها وحول إصدارها الكثير من أساطير الغموض ، والتي ألفت على عصر الحاكم تلك الظلال التي تساهم هذه السطور في إزالتها وكشفها من فوق وجه مصر الفاطمية في ذلك التاريخ . ونحن نستطيع أن نقسم هذه المراسيم إلى مجموعات ثلاث ، منها ما هو خاص بالذميين ، ومنها ما هو خاص بالمسلمين السلفيين و«السنين» ، ومنها ما هو عام وشامل لكل المواطنين .

(١) المصدر السابق : ص ١١٠-١١١ .

(٢) المصدر السابق : ص ١٦٠ .

(٣) المصدر السابق : ص ١٥٧ ، ١٥٨ .

(٤) إغاثة الأمة بكشف الغمة : ص ١٤ .

مراسيم أهل الذمة :

فأما ما يتعلق بأهل الذمة ، والمسيحيين منهم على وجه الخصوص ، فلعل التضييق عليهم والشدة التي أصابتهم في الملابس ، والمركب ، وتحريم بيع العبيد والإماء المسلمين لهم ، والتي تصاعدت حتى أدت إلى هدم كنائسهم بها فيها كنيسة القيامة ، التي هدمها الحاكم سنة ١٠٠٩م - (سنة ٤١٠هـ) ، إنما كانت رد فعل لذلك النفوذ والتسلط الذي اكتسبه الكثيرون من أغنيائهم والمتولين للسلطة منهم ، وهو الأمر الذي كان محل انتقاد شديد من جمهور المسلمين المصريين .

ولقد كان « العزيز » ، والد الحاكم ، متزوجًا من مسيحية ، أنجبت له ابنة أسمها « سيدة الملك » . وكانت هذه الزوجة ، وبعدها البنت ، ذات نفوذ واسع في البلاط الفاطمي . وكان لهذه الزوجة أخوان من البطارقة : « أرسانيوس » ، الذي عينه العزيز مطرانًا للقاهرة سنة ٣٧٥هـ - (سنة ٩٨٥م) ، ثم عين بطريركًا للطائفة الملكانية بالإسكندرية سنة ٣٩٠هـ - (سنة ١٠٠٠م) . و « أريسطيس » ، الذي عينه العزيز بطريركًا للملكانية في بيت المقدس سنة ٣٧٥هـ - (سنة ٩٨٥م) .

ولقد سبق للخليفة العزيز أن استوزر الوزير المسيحي عيسى بن نسطورس ، وكذلك ولي أمور الشام للوزير اليهودي منشا إبراهيم القزاز ، « فاعتز بهما النصراني واليهود ، وأذوا المسلمين . فعمد أهل مصر وكتبوا قصة جعلوها في يد صورة عملوها من قراطيس ، فيها : بالذي أعز اليهود بمنشا ، والنصراني بعيسى ابن نسطورس ، وأذل المسلمين بك ، إلا كشفت ظلامتي !! وأقعدوا تلك الصورة على طريق العزيز ، والرقعة بيدها . فلما رآها أمر بأخذها ، فإذا الصورة من قراطيس ، فعلم ما أريد بذلك ، فقبض عليهما ، وأخذ من عيسى بن نسطورس ثلاثمائة ألف دينار ، ومن اليهودي شيئًا كثيرًا » (١) .

(١) اتعاظ الخنفا : ص ٢٩٧ . والبداية والنهاية : ج ١١ ، ص ٣٢٠ .

ولقد سجل لنا الشاعر المصرى الحسن بن بشر الدمشقى تدمير الشعب من هذا النفوذ ، الذى مكنت منه الدولة الفاطمية الوزراء المسيحيين ، وذلك عندما هجا الخليفة « العزيز » ويعقوب « ابن كلس » و « الفضل » القائد ، بقوله :

تنصّر، فالنَّصْرُ دينٌ حَقٌّ عليه زماننا هذا يَدُفُّ
وقل بثلاثة عزوا وجأوا وعطل ما سواهم فهو عطل
يعقوب الوزير أب ، وهذا العزيز ابن ، وروح القدس فضل (١)!

بل لقد أفسحت الخلافة الفاطمية الميدان ، ميدان الوزارة ، لغير عيسى بن نسطورس من المسيحيين ، فتولاها منهم كذلك « فهد بن إبراهيم » الذى لقب بالرئيس ، ومنصور بن عبدون ، الذى لقب بالكافى ، وزرعة بن نسطورس الذى لقب بالشافى (٢) . فإذا جاء الحاكم بأمر الله ، فأصاب بمراسيمه تلك الحريات الدينية والمدنية التى كان يتمتع بها الذميون ، واستجاب بذلك للمشاعر العامة التى كانت سائدة فى ذلك الحين ، فإننا يجب ألا نتخذ من ذلك الموقف ذريعة نرّميه بسببها بما رماه الكثير من المؤرخين والباحثين . فهو لم يكن فى موقفه هذا أكثر من حاكم يعالج خطأ بخطأ آخر ، ويسلك فى سبيل إزالة النفوذ غير الطبيعى الذى منحه الدولة للذميّين سبيل ردود الأفعال العنيفة ، التى كانت إحدى سمات ذلك العصر فى كل المجتمعات .

مراسيم أهل السنة :

أما تلك المجموعة من المراسيم ، التى أصدرها الحاكم فى سنة ٣٩٥هـ خاصة بالمسلمين السلفيين ، فإنها تتلخص فيما هو موجه ضد الاتجاه السلفى مباشرة ، مثل ذلك المرسوم الشاذ الذى أصدره بسبب أبى بكر وعمر وعثمان وعائشة ومعوية وغيرهم من الصحابة ، الذين وقفوا بشكل أو بآخر موقفاً لا يتفق مع ما

(١) اتعاظ الخنفا : ص ٢٩٨ . (٢) الحاكم بأمر الله : ص ٣٣٠ .

تعتقده الشيعة في الوصية التي أوصى بها الرسول إلى علي بن أبي طالب . ولقد أمر الحاكم بإثبات هذا السب على الجوامع والمساجد والمقابر والدور والخوانيت ، وصيغ لوحاته بالذهب والأصباغ ، وأمر الناس بالجهر به !!

وبرغم أننا نعتبر أن مرسوم الحاكم هذا هو أمر شاذ ، فإننا لا نصفه بسببه بالجنون ، ولا بما هو أكثر من الغلو في التشيع لأجداده أهل البيت . وهو غلو لم تكن الأطراف السنية والسلفية بريئة من مثله في تلك العصور . فنحن نعلم أن تفضيل معاوية بن أبي سفيان على علي بن أبي طالب ، كثيرًا ما استخدمه الساخطون على الحكم الفاطمي والمقاومون له ، كعامل يستفزون به الفاطميين . ولقد حدث في رمضان سنة ٣٦١ هـ - (سنة ٩٧١ م) أن خرج بعض الرعية في الشوارع جماعات ينادون : « معاوية خال المؤمنين ، وخال علي » (١) .

كما نعلم أن أول من استن سنة سب الصحابة هذه هم الأمويون ، حيث سبوا عليًا وأنصاره وشيعته على المنابر . كما نعلم كذلك أن من فرق الشيعة فرقة تسمى «الرافضة» ، وأن البعض يعلل تسميتها بهذا الاسم ، لأنها ترفض الاعتراف بأحقية أبي بكر وعمر وعثمان في الخلافة ، وأحقيتهم في التقدم على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب في هذا المقام . وهكذا نجد أن الشذوذ الذي ننظر به إلى مرسوم الحاكم بأمر الله هذا ، والاستغراب الذي نستقبله به ، إنما هما من آثار أفقنا المستنير وعصرنا الحديث . أما ذلك العصر ، فإنه لم يكن بالمستغرب فيه ، ولا بالشاذ ، أن يصدر حاكم من الحكام أمثال هذه المراسيم .

وعلى كل ، فإن هذا المرسوم قد أدى إلى إحداث ثمر شعبي ، وضجة جماهيرية ، أدت إلى إلغائه ومحو آثاره في سنة ٣٩٧ هـ (١٠٠٦ م) . وعندما استمرت قلة من متعصبى الشيعة في ممارسة هذا العمل ، حدث تحرك جماهيري ، وقامت فتنة في سنة ٤٠٣ هـ - (سنة ١٠١٢ م) ، وتظاهر الناس أمام قصر الحاكم

(١) اتعاظ الخنفا : ص ١٣١ . وهم يشيرون إلى أن لمعاوية أختًا تزوجت الرسول وصارت أمًا للمؤمنين ، فهو إذن خال للمؤمنين ، وفيهم علي بن أبي طالب !!

بأمر الله . فاستجاب لمطلبهم . ولم يكتف هذه المرة بتحريم سب السلف من الصحابة ، بل وأصدر مرسوماً يطلب من الناس الترحم عليهم (١)!

كما أصدر الحاكم في سنة ٣٩٥هـ بغض المراسيم ، التي انطلق في إصدارها من فوق أرضية الغلو للتشيع ، والتي وإن أضحكت كل الذين قرءوا عنها في كتب التاريخ ، إلا أنها معروفة الدوافع ، وإن اتصفت هذه الدوافع بالحدة والنزق والبعد عن الموضوعية إلى حد كبير . فطلب تحريم أكل « الملوخية » ، لأنها كانت محبوبة لمعاوية بن أبي سفيان ! و « الجرجير » ، لأنه كان أثيراً ومنسوباً إلى السيدة عائشة ! ، و « المتوكلية » ، التي كانت تنسب للخليفة السلفي المحافظ المتوكل العباسي ! !

المراسيم العامة :

أما تلك المراسيم التي بدأ الحاكم في إصدارها في سنة ٣٩٥هـ ، والتي لم تكن موجهة إلى الذميين ولا إلى المسلمين السلفيين ، وإنما كانت شاملة لكل الرعايا والمواطنين ، وبعيدة عن قضايا العقيدة والطائفية ، فإنها كثيرة ومتعددة ، كما أنها جميعها منطقية ومفهومة . بل إنها لا تعدو أن تكون محاولات إصلاحية أراد الحاكم بها إنقاذ المجتمع الذي أخذ الترف والبذخ والتحلل بخناقه . ونحن نعتقد أنه لو كانت أساليب العصر قد أسعفت الحاكم بأمر الله بوسائل للإصلاح أكثر ليناً ورفقاً ، وأشد فاعلية وجاذبية ، لما انتهت الخلافة الفاطمية إلى الوقوع فريسة في يد الجند والوزراء المستبدين بعد وفاته بنحو نصف قرن من الزمان .

فلقد أصدر عدة مراسيم تستهدف المحافظة على الصحة العامة للمجتمع والأفراد ، مثل تحريم أكل « الترمس المتعفن » و « الدلينس » - (أم الخلول) - والسّمك الذي لا قشر له . كما أمر بقتل الكلاب الضالة ، والتي لا تستخدم في الصيد أو الحراسة .

(١) الحاكم بأمر الله : ص ١٤٦ .

كما أصدر عدة مراسيم تستهدف المحافظة على الأخلاق ، ومعالجة موجات الانحلال التي بدأت تشيع بسبب الترف في الأوساط الغنية ، أو تنتشر بسبب المجاعات في أوساط الفقراء . فحرم عمل « الفقاع » وبيعه ، وكان من مسكرات ذلك العصر ، كما كان شربه مكروهاً من الإمام على بن أبي طالب . حتى إذا كان شهر ربيع الأول سنة ٣٩٩هـ - (سنة ١٠٠٨ م) ، أصدر مرسوماً بمنع عمل « النبيذ والمزر » . ولقد كان الحاكم عدواً لكل أنواع المسكرات ، ولقد جاء في سجل أصدره بتحريم المسكرات في سنة ٤٠٠ هـ - (سنة ١٠٠٩ م) أن « المسكر هو مجمع السيئات ، والقائد إلى قبائح الأفعال والسوءات » .

وبما يدل على أن المراسيم ، التي أصدرها الحاكم بأمر الله لمعالجة انتشار المسكرات ، إنما كانت تستهدف العلاج للمجتمع ، لا العنت والإرهاق للأفراد ، وأن غاياتها وأهدافها كانت في غاية الوضوح ، أنه قد حدث عندما حرم النبيذ وأمر بإتلافه ، أن تقدم إلى قاضى القضاة تاجر أتلفت بضاعته من الزبيب والعسل ، وقال : إن بضاعته كانت لصنع الحلوة لا الخمر ، وطالب الحاكم بالتعويض ، وقيمته ألف دينار ، فقبل الحاكم الخصومة ، وطلب اليمين من التاجر ، فحلف ، فحكم له بهاله ، ودفعه له الحاكم (١) .

وبما يؤكد أن الحاكم إنما كان يواجه موجة من التحلل الخلقى في المجتمع القاهري في ذلك الحين ، ذلك المرسوم الذى أصدره في سنة ٤٠١ هـ - (سنة ١٠١٠ م) ، والذي يمنع اللهو والغناء ، وخاصة بالنسبة للنساء ، والذي يجرم الاجتماعات الماجنة التي كانت تعقد في الخلاء بالصحراء . وعند ذلك ، هوجمت أماكن البغاء بشدة ، وأزيلت دورهم وأوكارهم ، وظهرت منهم أحياء المدينة ، وكانوا ينبثون في معظم جنباتها .

(١) المصدر السابق : ص ١٥٩ (نقلًا عن مخطوط كنسى عنوانه : سير البيعة المقدسة) .

كما سبق أن حرم على الناس دخول الحمام إلا بمئزر يستر بعض عوراتهم ، وحرّم على غير الباعة والمشتريين للأرقاء دخول أسواقهم ، حتى يمنع العابثين من تمضية الوقت في التمتع بالجوارى بحجة الشراء . كما طلب من تجار الرقيق عدم الجمع بين الغلمان والإماء في مكان واحد ، وأن يفرد لكل منهم يوم خاص بالبيع والشراء .

الحاكم والنساء :

أما قصة مراسيم الحاكم بأمر الله مع نساء القاهرة ، ومنعه إياهن من الخروج من البيوت ، وطلبه إلى صانعي أحذيتهن عدم صنع شيء منها ، فإنها قضية ذات صلة وثيقة بذلك المستوى من التحلل الخلقي الذي ساد القاهرة في ذلك الحين ، وبكثرة بائعات الهوى اللاتي انتشرت بضاعتهن في معظم جنات العاصمة . ولقد بدأ الحاكم في سنة ٣٩٥هـ ، بمرسوم يحرم تبرج النساء وكشف وجوههن في الطرقات العامة أو خلف الجنازير . ولما لم يكن ذلك كافياً في صد التيار المنحل يومها ، فلقد أصدر مرسوماً في سنة ٤٠٢هـ . (سنة ١٠١١م) يمنع النساء من زيارة المقابر ، - (وهي عادة أدخلها الفاطميون في مصر ، وليست من الإسلام في شيء) - ، والاستحمام في الحمامات العامة ، والركوب مع الرجال في الحفلات العامة على شاطئ النيل . ولما لم يتجح ذلك كذلك في بلوغ الغاية المرجوة ، أصدر في شعبان سنة ٤٠٤هـ . (سنة ١٠١٤م) مرسوماً يحظر على النساء مغادرة دورهن . واستثنى من ذلك من هن مصلحة حيوية في الخروج ، مثل المتظلمات للشرع ، ومن هن شكيات ، والذاهبات لأداء فريضة الحج ، والمسافرات لظروف القاهرة ، والجوارى الذاهبات إلى سوق الرقيق ، والقابلات ، وغاسلات الموتى ، والأرامل اللاتي يتعيشن من بيع الغزل ، وأمثالهن . وأمر أن يكون خروجهن برفاق (بطاقات) يصرفها هن مدير الشرطة^(١)!

(١) راجع في هذه المراسيم الحاكم بأمر الله : ص ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٣٢ ، ١٣٤ ، ١٤٦ .

وحتى نستطيع أن نطمئن تمامًا ، ويطمئن معنا الذين تراودهم الشكوك حول أهداف الحاكم بأمر الله من هذه الحملة ، التي استهدفت النساء الماجنات ، والتي أدت إلى منع خروج النساء إلا للضرورات القصوى ، وحتى نتأكد من أن الغاية الأخلاقية ومحاربة الفساد والتحلل الخلقي إنما كانتهما القصد من كل ذلك ، فإننا نسوق هنا رواية المؤرخ السلفى ابن كثير ، الذى يتحدث كيف أن الحاكم بأمر الله قد « جهز نساء عجمائز يستعلمن أحوال النساء لمن يعشقن أو يعشقهن بأسائهن وأسياء من يتعرض لهن ، فمن وجد منهن كذلك أطفأها وأهلكها . . وغرق خلق من الرجال والنساء والصبيان ممن يطلع على فسقهم . فضاق الحال ، واشتد على النساء وعلى الفساق ذلك ، ولم يتمكن أحد منهن أن يصل إلى أحد إلا نادرًا ، حتى إن امرأة كانت عاشقة لرجل عشقًا قويًا كادت أن تهلك بسببه ، لما حيل بينها وبينه ، فوقفت لقاضى القضاة ، وهو « مالك بن سعد الفارقى » وحلفته بحق الحاكم لما وقف لها واستمع كلامها . فرحمها فوقف لها ، فبكت إليه بكاء شديدًا ، مكرًا وحيلة وخداعًا ، وقالت له : أيها القاضى ! إن لى أخًا ليس لى غيره ، وهو فى السياق ، وإنى أسألك بحق الحاكم عليك لما أوصلتني إلى منزله لأنظر إليه قبل أن يفارق الدنيا ، وأجرك على الله . فرق لها القاضى رقة شديدة ، وأمر رجلين كانا معه يكونان معها حتى يبلغاها إلى المنزل الذى تريده . فأغلقت بابها ، وأعطت المفتاح لجارتها ، وذهبت معها حتى وصلت إلى منزل معشوقها » . وعندما حضر زوجها ، وعلم القصة ، ذهب إلى القاضى وأخبره أن امرأته ذهبت إلى معشوقها ، لأنه ليس لها أخ . وهدد القاضى برفع الأمر إلى الحاكم . فذهب القاضى إلى الحاكم ، وبكى ، وأخبره الخبر ، فأمر بإحضارهما على حالهما ، هى ومعشوقها ، فوجدا « متعانقين سكارى » ، فأحرقت المرأة ، وضرب الرجل حتى هلك (١)!

(١) البداية والنهاية : ج ١١ ، ص ٣٥٢ ، ٣٥٣ .

الإصلاحات الاقتصادية :

فإذا ما جاءت سنة ٣٩٧ هـ - (سنة ١٠٠٦ م) ، واضطربت الأحوال الاقتصادية ، بسبب ذلك الاضطراب الذى أصاب نقد البلاد ، حيث بلغ سعر الدينار أربعة وثلاثين درهماً بدلاً من ستة وعشرين درهماً ، « وارتفع السعر ، وزاد اضطراب الناس ، وتوقفت الأحوال » ، إذا بالحاكم يجرى من الإصلاحات النقدية ما يحاول به تخفيف حدة هذا الاضطراب .

ولكن عام ٣٩٨ هـ - (سنة ١٠٠٧ م) ، يأتى بها هو أشد وأفدح ، فتستمر الشدة بسبب نقصان ماء النيل ، حتى « عظم الأمر ، وكظ الناس الجوع ، فاجتمعوا بين القصرين ، واستغاثوا بالحاكم فى أن ينظر لهم ، وسألوه أن إلا يهمل أمرهم . فركب حماره ، وخرج من باب البحر ، ووقف وقال : أنا ماض إلى جامع راشد - (جنوبى القسطنطينية) - فأقسم بالله لئن عدت فوجدت فى الطريق موضعاً يطؤه حمارى مكشوفاً من الغلة لأضربن رقبته كل من يقال لى : إن عنده شيئاً منها ، ولأحرقن داره وأنهبن ماله ا ثم توجه وتأخر إلى آخر النهار ، فما بقى أحد من أهل مصر والقاهرة وعنده غلة حتى حملها من بيته أو منزله وشونها فى الطرقات . وبلغت أجرة الحمار فى النقلة الواحدة ديناراً ! . فامتلات عيون الناس ، وشبعت نفوسهم . وأمر الحاكم بما يحتاج إليه فى كل يوم ، ففرضه على أرباب الغلات بالنسيئة - (الأجل) - وخيرهم فى أن يبيعوا بالسعر الذى يقرره ، بما فيه من الفائدة المحتملة لهم ، وبين أن يمتنعوا فيختم على غلاتهم ولا يمكنهم من بيع شىء منها ، إلى حين دخول الغلة الجديدة ، فاستجابوا لقوله وأطاعوه أمره »^(١) .

وإذا كنا نَعْجَب بهذا الحزم الذى استخدمه الحاكم بأمر الله مع الذين كانوا يخفون الغلال ويحتكرون أقوات الشعب ، بينما المجاعة والغلاء يأخذان بخناق الجماهير ، وإذا كنا نلمح فى رواية المقرئى هذه حقيقة هامة ، مؤداها أن

(١) إغاثة الأمة بكشف الغمة : ص ١٧ ، ١٨ .

المجاعات التي شهدتها مصر ، لم يكن مرجعها فقط نقص النيل وقلة مياهه ، وإنما كان مردها كذلك سوء توزيع الثروة ، الذي يجعل المجاعة من نصيب الأغلبية ، والغلال التي زحمت طريق الحاكم وغطت أرضه ، والتي ظهرت في ساعات قليلة ، من نصيب القلة المترفة - إذا كنا نعجب بهذا الحزم الذي عالج به الحاكم بأمر الله هذه المحنة ، فإن إعجابنا به يزداد عندما نعلم أنه لم يكن حازماً فقط مع هؤلاء المحتكرين من أهل الغنى واليسار ، وإنما كان حازماً كذلك مع أهله وذويه ، بل ومع نفسه أيضاً .

● ففي سنة ٣٩٨ هـ - (سنة ١٠٠٧ م) ، أبطل المكوس والمؤن التي كانت تؤخذ من المسافرين عن الغلال والأرز . وحدد الأسعار ، ومنع خزن ما يزيد على الحاجة من الغلال .

● وفي سنة ٣٩٩ هـ - (سنة ١٠٠٨ م) ، صادر أسواق أهله (زوجته ، وأمه ، وأخته ، وعماته ، ونحواصه وجواريه) ، وسائر إقطاعاتهن وأمواهن بمصر والقاهرة ، وكانت جملة عظيمة . ثم عاد وعدل عن هذه المصادرة فيما بعد . ولعل عدوله عنها قد كان مرتبطاً بانفراج الشدة التي تعرض لها الناس .

● وفي سنة ٤١٠ هـ - (سنة ١٠١٩ م) ، أبطل ما كان يؤخذ على أيدي القضاة من « الخُمُر » و« الفطرة » و« النجوى » ، وهي ضرائب كانت تختص بها مجتمعات الفاطميين .

● وفي سنة ٤١٣ هـ - (سنة ١٠١٢ م) ، وزع الحاكم من أمواله الخاصة على الناس ، كما أسقط عن الناس مكوس الحسبة . وأصدر مرسوماً يحرم تقبيل الأرض بين يديه ، أو تقبيل ركابه أو يده ، أو الانحناء لمخلوق ، باعتبارها بدعة رومية ، والاكتفاء « بالسلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته » ، وألا يصل عليه في المكاتبات ، بل يدعى له بما تيسر .

● وفي المحرم سنة ٤١٤ هـ - (سنة ١٠١٣ م) ، أعتق الحاكم كل رقيقه ، بالقاهرة وخارجها ، ووهبهم كل ما كانوا يملكونه زمن رفقهم ! كما رفع المكوس من

جهات كثيرة ، وأبطل مكوس الرطب ودار الصابون ، وكان مبلغ الأخير ١٠٠٠ و١٦ دينار^(١) . حتى لقد قال عنه الأنطاكي إنه « أظهر من العدل ما لم يسمع به ، . . ولم تمتد يده قط إلى أخذ مال من أحد . . ولقد قتل من رؤساء دولته وأهل مملكته ممن لهم من الأموال العظيمة ما لا يقع عليه الإحصاء لكثرة ، فلم يتعرض لأخذ مال أحد منهم ، لا سيبا من كان له وارث ، ومن لا وارث لهم كانت تركتهم تستوهب منه فيهبها على الأكثر . وأسقط جميع الرسوم والمكوس التي جرت العادة بأخذها ، وتقدم إلى كل من أخذ منه شيء . . بغير واجب . . في أيامه وأيام أبيه وجده أن يطلق ما قبض منه »^(٢) . كما أنشأ الحاكم ديواناً سباه « الديوان المفرد » تودع فيه لحساب الشعب الأموال المصادرة من تركات الذين قتلهم بسبب جشعهم أو طمعهم في السلطان والنفوذ ، ولم يكن شيء من أموالهم هذه يذهب إلى حسابه الخاص ، ففارق صنيعه هذا صنيع الحكام الذين سبقوه أو عاصروه أو جاءوا من بعده ! .

(١) الحاكم بأمر الله : ص ١٣٢ ، ١٥٥ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٥٩ .

(٢) المصدر السابق : ص ١٥٨ .

الفصل السابع عن الجماعات والحروب والمظالم الاجتماعية

● دراسة عن مصر الشعب والأكثرية والكادحين
.. وأثار المظالم الاجتماعية ، والمجماعات ،
والحروب على حياة الناس والمجتمع في ذلك
التاريخ ..

الوجه الآخر للعملة

على أن هذا الغنى والترف والبذخ ، الذى سبق حديثنا عنه ، والذى أشرنا إلى أنه كان قسمة بارزة وملحوظة ، من قسومات الحياة فى مصر الفاطمية ، لم يكن من نصيب الجميع ولا هو بالذى كان مبدولاً لجميع الناس . بل إن الشدائد والمحن ، وسوء التنظيم والإدارة ، والظلم الاجتماعى قد جعل من كل ذلك وقفاً وحكراً على القلة الغنية فى المجتمع ، كما جعل الفقر والفاقة والبؤس الشديد من نصيب الأغلبية الساحقة من المواطنين .

ولقد لمس مؤرخنا الفذ المقرئى هذه الحقيقة ، عندما تحدث عن المجتمع المصرى ، فقسمه إلى طبقات وفتات سبعة هى :

١ - أهل الدولة ، وهم الذين يتولون السلطة والسلطان ، وييدهم مقاليد الأمور فيها ، مدنيين كانوا أم من كبار العسكريين .

٢ - أهل اليسار والغنى من التجار والملاك وأولى النعمة من أهل الرفاهية .

٣ - المشتغلون بالأعمال التجارية المتوسطة من الباعة ومتوسطى الحال من التجار ، وهم الذين يسمون بأصحاب البزّ والبزازين . ويلحق بهم الحرفيون المالكون لأدوات إنتاجهم ، الذين يسمون بأصحاب المعاييش ، وكانوا يسمون كذلك بالسوق ، نسبة إلى الأسواق وإلى قيامهم بصنع أدوات المعيشة وبيعها .

٤ - الفلاحون ، « أهل الفلح » وهم أهل الزراعات والحرث ، سكان القرى والريف .

٥ - الفقراء ، ومعدود فيهم أغلب الفقهاء وطلاب العلم وكثير من الجنود^(١).

٦ - الصناع ، أصحاب المهن الذين لا يملكون سوى قوة عملهم يؤجرونها للآخرين .

٧ - ذوو الحاجة والمسكنة ، وهم السؤال الذين يتكففون الناس ويعيشون منهم^(٢).

ثم يحدد المقرئ موقف كل طبقة أو فئة من هذه الفئات والطبقات من الشدائد التي كانت تمر بالمجتمع ، وموقف هذه الشدائد من هذه الطبقات ، فيقول : إنه في المحن والشدائد يستفيد الصنفان الأول والثاني . أما الثالث ، فإنه « ينفق ما اكتسبه فيما لا بد له منه من الكلف ، وحسبه ألا يستدين لبقية حاجته ، ويقنع كما قال الأول :

عَلَىٰ أَنَّىٰ رَاضٍ بِأَنْ أُجِئَ الْهَوَىٰ وَأَخْلَصَ مِنْهُ لَا عَلَىٰ وَلَا لِيَا

أما بقية الأصناف ، فهم بين فانٍ ، وميت ، ومُشتهٍ للموت في مثل هذه الظروف^(٣) !!

فإذا كان أهل الدولة ، وأهل اليسار ، هم المستفيدين الحقيقيين من الشدائد والمجاعات التي كانت تمر بالبلاد ، وإذا أخرجنا من حسابنا متوسطي الحال من التجار والباعة والحرفيين ، الذين تُحَقِّقُ لهم دخولهم الاكتفاء الذاتي ، فإننا سنجد الأغلبية الساحقة من المواطنين أمام هذه الشدائد : ما بين « فانٍ وميت ، ومشتهٍ للموت في مثل هذه الظروف » !! فإذا علمنا أن هذه الشدائد قد كانت طابع ذلك

(١) واصطلاح الفقراء في الفقه الإسلامي ، يطلق على الذين لا يملكون رصيّدًا يكفي احتياجاتهم من الضروريات عامًا كاملاً .

(٢) والساكين ، اصطلاح إسلامي يطلق على المُعْدِمِينَ الذين لا يملكون شيئًا .

(٣) إغاثة الأمة بكشف الغمة : ص ٧٢ - ٧٥ .

العصر ، وأنها كادت أن تكون ملازمة للناس ملازمة الظل في تلك الحقبة من حقب التاريخ ، أدركنا عمق تلك المأساة التي عاشها الإنسان المصرى العادى والبسيط في ذلك الزمان .

أما العناصر الأساسية ، التي عاشها الإنسان المصرى في هذه الحقبة ، فإننا نستطيع إجمالها تحت عناوين رئيسية ، شكَّلت طابع الحياة الاقتصادية والاجتماعية ، وأثَّرت فيها أبلغ التأثير ، وهى :

- ١ - النظام الإقطاعى فى الاستثمار الزراعى .
- ٢ - الضرائب الكثيرة التى كانت تُجَبَى من المواطنين .
- ٣ - المجاعات التى كادت أن تلازم الناس يومئذ .
- ٤ - الحروب والأخطار الخارجية ، وما كانت تستنزفه من إمكانات و ثروات .

الإقطاع الزراعى

وإذا كنا قد تحدثنا ، فيما سبق ، عن نظرية الإمامة عند الشيعة الفاطمية ، وعند الشيعة عمومًا ، وأشرنا إلى صلة موقفها في « التفويض والحق الإلهى » للخلفاء بالميراث الفكرى الإقطاعى للأكاسرة الفرس الساسانيين ، فإننا حينما ننظر إلى النظام الاقتصادى الزراعى الذى ساد مصر زمن الفاطميين ، بل وقبلهم بكثير وبعدهم بكثير ، فإننا سنجد أنفسنا تجاه نظام إقطاعى فى الاستغلال والاستثمار ، يقوم على الربح ، ويحمل جوهر الإقطاع بمعناه الحديث ، وإن اختلف فى الشكل عن الإقطاع الذى عرفته أوروبا فى العصر الوسيط^(١) .

فعندما وصل المعز لدين الله الفاطمى إلى مصر ، وشرع فى إجراء التغييرات الإدارية فى جهاز حكمها ، « قبضت أيدى سائر العمال والمتضمنين » ، وعهد بكل

(١) راجع فجر اليقظة القومية : ص ٥٩ - ٧١ ، ١٥٣ - ١٦٨ .

شئون المال والاقتصاد والحسبة والحولى - (الجزية) - والأحباس - (الأوقاف) -
 والمواريث ، والشرطة ، « وجميع ما ينضاف إلى ذلك وما يطوى في مصر ، وسائر
 الأعمال » إلى كل من يعقوب بن يوسف وعسلوج بن الحسن . « وكتب لهم بذلك
 سجلاً ، وقرىء يوم الجمعة (١٦ من محرم سنة ٣٦٣ هـ - (سنة ٩٧٣ م) ، على
 منبر جامع أحمد بن طولون » . وشرعت السلطة الجديدة في نقل تعاقدات
 « الالتزام » و « التضمين » إليها كطرف في هذه العملية التى تقوم فيما بينها وبين
 « المتزمين » و « الضامنين » ، هؤلاء الذين اعتادوا التوافد إلى مسجد عمرو بن
 العاص بمدينة الفسطاط في يوم محدد من أيام السنة لحضور « المزايدة » على
 « الالتزام » ، فينادى على القرى ، وتتم « المزايدة » ، ثم يرسو « العطاء » على من
 يرفع السعر ، فيدفع ضريبة عام مقدماً ، ثم يحصل على « الالتزام »^(١) . أما عملية
 الفلاحة اللازمة لهذه الأرض التى كانت تتكون منها دوائر الالتزام ، فلقد كان يقوم
 بها الفلاح المصرى الذى صيره نظام الالتزام « عبداً قنأً لمن أقطع تلك الناحية ، إلا
 أنه لا يرجو قط أن يباع ولا أن يعتق ، بل هو قنأٌ ما بقى ، ومن ولد له
 كذلك ! »^(٢) .

وعندما قرىء سجل تولية يعقوب بن كلس ، وعسلوج بن الحسن لأموال المال
 في مصر الفاطمية ، « جلسا عند هذا اليوم ، (لا في مسجد عمرو بن العاص هذه
 المرة) ، ولكن في دار الإمارة في جامع أحمد بن طولون^(٣) ، للنداء على الضياع
 وسائر وجوه الأموال ، وحضر الناس « للقبالات » . وإمعاناً في تأكيد استمرارية
 النظام الاقتصادى نفسه بمصر ، وإن تغيرت « الدولة » ، طلبت السلطة الجديدة

(١) المرجع السابق : ص ١٥٦ .

(٢) خطط المقرئى : ج ١ ص ٨٥ .

(٣) كانت دار الإمارة هذه ، بجوار مسجد ابن طولون .

من الملتزمين والمتقبلين والضامين « البقايا من الأموال مما على المالكين والمتقبلين والعمال ، واستقصيا - (أى ابن كلس وعسلوج) - فى الطلب » (١) .

ولقد كان نظام الالتزام ، وإن لم يعط الملتزم حق الملكية القانونية المطلقة للأرض ، وإن اقتصر حقه هذا على ما يمكن أن نسميه « ملكية المنفعة » ، إلا أن استمرارية هذا الحق الذى بدأ « لمدة عام » ، ثم تطوّر الأمر فأصبح الحصول عليه لأكثر من عام ، ثم أصبح « الالتزام » حقاً للملتزم القائم بواجباته مدى الحياة ، بل ولورثته من بعده إن هم طلبوا ذلك وقاموا بما يفرضه عليهم من واجبات » (٢) .

لقد كان هذا النظام بتطوره هذا الذى حول « ملكية المنفعة » إلى ما يشبه « الملكية المطلقة » ، وكذلك بالعلاقات الإقطاعية الصرفة التى كانت قائمة بين الملتزم وبين الفلاح القرن الذى يزرع الأرض نظير القوت الضرورى ، والذى ما كان يستطيع أن يتحرر من قيد الحياة فى الدائرة التى ولد فيها ، وكذلك بالرعب والفائض العائد لحزاة الملتزم ، والذى هو حصيلة الفرق بين الضمان والضريبة اللتين يدفعهما الملتزم ، والقوت الضرورى الذى يمنحه الملتزم للأقنان - لقد كان نظام الالتزام هذا ، وهو القسمة العامة لنظام الاستغلال الزراعى فى مصر ، نظاماً إقطاعياً لحماً ودماً ، تكشفت فيه كل جوهرات النظام الإقطاعى ، بصرف النظر عن الفروق الشكلية التى تمايز ما بينه وبين إقطاعيات أمراء الإقطاع الأوربيين فى العصر الوسيط .

بل إننا نجد ، أحياناً ، فى التنف القليلة التى خلفها لنا المؤرخون المصريون عن مظاهر هذا النظام الإقطاعى ومراسيم وجوهه وأعيانه ، ما يقرب الشقة بينه وبين ما عرفناه عن نظام أمراء الإقطاع ، من حيث التزام الملتزمين بالحرب ونفقاتها عن المناطق التى ضمنوا خراجها ، وكذلك من حيث المظاهر التى كانوا يحيطون

(١) اتعاظ الحنفا : ص ١٤٤ ، ١٤٥ .

(٢) فجر اليقظة القومية : ص ١٥٦ .

بها أنفسهم . فنحن نقرأ للمقريزي ، أنه عندما « ضمن أبو عبد الله الحسن بن إبراهيم الرسى ، وأبو طاهر بن قدامة خراج الأشمونين وحربها ، وخلع عليهما ، سارا بالبندود والطبول . وضمن أبو الحسن علي بن عمر العداسى كورة بوصير وأعمالها ، وخلع عليه وحمل ، وسار بالبندود والطبول » (١) .

وعندما كان « الضامن أو المتقبل أو الملتزم » يحصل على امتياز ضمان « الخراج » ، وكذلك على « الأعمال » ، وأيضاً على « الحرب » ، بالنسبة لدائرة التزامه أو « قبائله » ، فإنه كان يتحول إلى حاكم تجتمع في يديه كل السلطات الاقتصادية والإدارية والحربية ، وحينئذ يكون قد اقترب كثيراً من صورة أمير الإقطاع الأوربي ، وإن ظل نهر النيل - بما فرضه من مركزية للدولة المصرية ضاربة بجذورها في أعماق التاريخ - عقبة أمام تحول دوائر الالتزام هذه إلى وحدات إدارية وسياسية مستقلة ، كما حدث في أوروبا الإقطاعية عندما ساد فيها هذا النظام .

الضرائب والمكوس

ولم تكن الدنانير المعزية الذهبية ، التي تحولت إلى سبائك على هيئة « الرحي » ، والتي حملت على إبل « زناته » في موكب المعز لدين الله الفاطمي القادم إلى مصر بعد الفتح بأربع سنوات ، لم تكن هذه الثروة بهانعة المعز ، ومن جاء بعده من خلفاء أسرته ، من الغلو في جباية الضرائب وفرض المكوس وتحصيلها ، والقسوة في ذلك إلى الحد الذي أرهق الشعب بطبقاته الفقيرة ، وحول حياته إلى سلسلة شبه متصلة من الأزمات والمجاعات والاختناقات .

ونحن لا يمكن أن نتحدثنا كلمات المعز ، ولا كلمات قائده جوهر الصقلي من قبله ، التي صورت أهداف الفتح على أنها منحصرة في « الحج والجهاد » ، لأننا نجد الوقائع المادية الصارخة تكذب ذلك ، كما نجد المقريزي ، وهو مؤرخ غير

(١) اتعاظ الحنفا : ص ٢١٧ .

متهم بمعاودة الدولة ، يتحدث إلينا عن الشدة التى استنهبها المعز فى جمع الخراج ، وكيف « اشتد الاستخراج^(١) » ، وأكد المعز فيه ليرد ما أنفقه من أمواله على مصر ، لأنه قدم مصر يظن أن الأموال مجتمعة ، فوجدها قد فرقته مؤن مصر وكثرة عساكرها !^(٢).

بل إن علينا ، ونحن نطالع أرقام الضرائب والمكوس التى حصلها المعز ونظامه الجديد من المواطنين المصريين ، أن ننتبه إلى ذلك التعديل الذى حدث فى العملة ، والفرق بين « الدينار المعزى » الجديد و « الدينار الراضى » الذى كان معمولاً به فى مصر من قبل ، وكيف « امتنع يعقوب (بن كلس) وعسلوج (بن الحسن) أن يأخذوا فى الاستخراج إلا « ديناراً معزياً » ، فانتضع « الدينار الراضى » وانحط ، ونقص من صرفه أكثر من ربع دينار^(٣) !

وفى شهر ربيع الآخر سنة ٣٦٣ هـ - (سنة ٩٧٣ م) ، طلبت السلطة الجديدة من أصحاب الأوقاف ونظار الأقباس حجاج هذه الأوقاف وشرائطها ، ليتم الحساب على أساسها منعاً من التهرب والتهرب . وبلغت قسوة التحصيل وكثرة الأموال المستخرجة حدّاً جعل المقريزى يقول : إن « هذا لم يسمع بمثله قط فى بلد » وهو يقصد فى بلد غير فاطمى ، أو فى بلد من قبل ذلك ، لأنه يستطرد فيذكر أن مثل ذلك قد حدث بعد عهد المعز فى عصر العزيز !

ولعل نظرة على الأرقام التى جباها يعقوب بن كلس والتى ذكرها المقريزى تستطيع أن تجسد لنا الصورة التى بلغها هذا الأمر إلى حد كبير :

● فى يوم واحد ، بلغ المستخرج أكثر من خمسين ألف دينار معزية ، جمعت دون أن يعطى جامعوها « براءة ولا حوالة » للذين دفعوها !

(١) ولست أدري هل قصد المقريزى إلى استخدام كلمة « الاستخراج » بدلاً من « الخراج » ، ليصور حقيقة الحال ، أم جاءت هكذا عفواً لتجسيد التصوير ، إذ من المعروف أن « الاستخراج » كلمة توحى لنا بأن الأمر كان « انتزاعاً » للخراج من الناس !!

(٢) اتعاظ الخنفا : ص ١٤٦ .

(٣) المصدر السابق : ص ١٤٦ .

- وفي يوم ثان ، بلغ المستخرج ١٢٠,٠٠٠ دينار معزية .
- وفي يوم ثالث ، بلغ المستخرج من ثلاث مدن مصرية فقط هي « تيس » و« دمياط » و« الأشمونين » أكثر من ٢٢٠,٠٠٠ دينار معزية (١).
- ولقد بلغت الضرائب التي تدفعها مدينة « مصر » وحدها في اليوم الواحد ما بين ٢٦ و ٦٢ ألف جنيه ، وذلك حسب حالتها المالية (٢).

أما المقارنة ، التي أشار إليها المقرئ ما بين أرقام الاستخراج اليومي في زمن المعز وزمن العزيز ، فإنها تضع أيدينا على رقم يورده ، ويقول : إن « خير بن القاسم ، وعلي بن عمر العداس ، وعبد الله بن خلف المرصدي » قد جمعوا للعزيز في ثلاثة أيام ١٠٠,٠٠٠ دينار عزيزية ، وكان ذلك في سنة ٣٧٤ هـ (سنة ٩٨٤م) (٣) !!

فإذا جئنا إلى عصر الخليفة المستنصر ، وجدنا خراج مصر قد بلغ ٢,٨٠٠,٠٠٠ دينار سنة ٤٦٦ هـ (سنة ١٠٧٣م) ، وفي عهد وزيره ذي السلطات المطلقة بدر الجمالي ٣,١٠٠,٠٠٠ دينار في سنة ٤٧٨ هـ (سنة ١٠٨٥م) ، ليقفز في عهد المستنصر كذلك على يد وزيره الأفضل بن بدر الجمالي إلى ٥,٠٠٠,٠٠٠ دينار ، وذلك غير ما جمع عيناً من غلالها التي بلغت ١,٠٠٠,٠٠٠ أردب (٤) .

فإذا أضفنا إلى ذلك دخل السلطة الفاطمية من المكوس التي كانت تحصلها على التجارة الواردة من خارج البلاد ، وكانت تبلغ ٢٠٪ من قيمتها ، والصادرة إلى خارج البلاد ، وهي المكوس التي كانت تجمع في ثغور « دمياط » و« تيس »

(١) المصدر السابق : ص ١٤٧ .

(٢) سيرة القاهرة : ص ١٣١ .

(٣) اتعاظ الحنفا : ص ١٤٧ .

(٤) الحاكم بأمر الله : ص ٣٤٦ . وخطط المقرئ : ج ١ ، ص ٨٣ .

و« رشيد » و« الإسكندرية » و« عيذاب » و« أسوان » ، واضعين في اعتبارنا أهمية مصر في ذلك الحين ، وقبل اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح ، وخلال فترات كثيرة أغلقت فيها طرق الشام أمام التجارة الدولية بسبب من غزوات القرامطة أو حروب الصليبيين ، مما جعل مصر هي الطريق شبه الوحيد لهذه التجارة العالمية ، وإذا أضفنا إلى ذلك أيضاً المكوس التى كانت تؤخذ على التجارة الداخلية - (الترانزيت) - داخل الوطن الواحد - مصر - بسبب من التجزئة النسبية التى أحدثتها نظام الالتزام ، وضعف السلطة المركزية في كثير من الفترات . . كذلك ، إذا أضفنا دخل هذه السلطة من الجزية التى كانت ضريبة أمن وجندية يدفعها الذميون ، وكذلك الدخل الناتج عن فروق العملة والنقد (فرق السكة) ، والضرائب الأخرى التى كانت تجبى من الناس ، وخاصة من «المؤمنين» المرادين للتشيع والسالكين في الاعتقاد مسلك الفاطميين ، والتي كانت تعرف إحداها «بالنجوى» وثانيتهما «بالفطرة» ، ضرائب أشبه بالاشتراكات الجزية ، لأنها «صارت فرضاً واجباً على كل مؤمن العمل به ، ومن تركه كمن ترك فرضاً من فرائض الصلاة والصوم والحج والجهاد» ، ولأنها «كانت من الفروض اللازمة للإمام على المؤمنين ، وبها قوام الدين . . وإنه لا يسع أحدا من المؤمنين تأخيرها ، ولا يحل له إغفالها» (١).

وإذا أضفنا إلى كل ما تقدم دخل السلطة الفاطمية ، والخليفة بالذات ، من التجارة الخاصة التى كانت شبه احتكار لهم ، ومن الخوانيت والدكاكين التى كانت العاصمة تمتلئ بها والتي كانت لهم ملكاً يؤجرونها للناس ، والتي بلغت عشرين ألفاً ، ومن المنازل التى كانت لهم بالعاصمة يؤجرونها للناس ، والتي بلغت ثمانية آلاف ، حسب روايات ناصرى خسرو - أدركننا عظمة تلك الروافد المالية التى كانت تمتد خزائن الدولة بالأموال ، وكثرتها ، وأدركننا كذلك فعالية هذا النظام الضرائبي وقدرته على أن يكون مصدرًا من مصادر الشقاء وعاملاً من عوامل المأساة التى عاشها الإنسان المصرى في ذلك التاريخ .

(١) الحاكم بأمر الله : ص ٣٤٦ ، ١٤٩ . والسجلات المستنصرية : ص ٨٤ ، ٨٥ .

أما كيف كانت هذه الأموال تنفق عندما تصل إلى خزائن الخلفاء والأغنياء ، فإن حديثنا الذى سبق عن قسمة الغنى والبذخ والترف الذى شهدته مصر والقاهرة ، إنما يمثل الجواب عن هذا السؤال . ويكفى أن نقرأ أرقام نموذج واحد ، ساقه لنا المقرئى بجانب من « ميزانية الدولة » الخاص بالمنصرف فى أحد أعوام حكم المعز لدين الله ، لنجدده يقول : إنها كانت على هذا النحو :

المبلغ بالدينار	الغرض المعتمد لأجله
٢٠٠,٠٠٠	وقف على « معلول ومنكسر ، على موتى وهراب ومفقود » . (وهو خاص بعلاج الخاصة ، وتجهيز موتاهم ، وأعمال خاصة بالأمن) .
٣٠٠,٠٠٠	« للرجال (رجال الدولة) عن واجباتهم وكساويهم » .
١٠٠,٠٠٠	« ثمن غلة للقصور » الخاصة بالخليفة (ولقد بلغ سكان القصر ، عندما زار ناصرى خسرو مصر ، ٣٠,٠٠٠ نسمة) .
٢٠٠,٠٠٠	« نفقات القصور » .
١٠٠,٠٠٠	« عن عمائر - (أى سفن) - وما يقام للضيوف الواصلين من الملوك وغيرهم » .
١٠٠,٠٠٠	لبيت المال المصون (وهو المبلغ الوحيد الذى يمكن أن ينفق بعضه فى المصالح العامة من بين ١,٠٠٠,٠٠٠ دينار ، وهى مجموع هذه الميزانية الجزئية التى ساق المقرئى طرفاً منها ^(١) .

(١) خطط المقرئى : ج ١ ، ص ٨٢ .

الحروب

ولم تكن الحروب التي خاضها الفاطميون ، والتي سببت هي الأخرى نزيفاً اقتصادياً لثروات الشعب والجمهير ، وساهمت في صنع المأساة التي تجسدت في سلسلة الأزمات المالية والمجاعات الغذائية ، لم تكن هذه الحروب قاصرة على ذلك الفتح الفاطمي الذي مد حدود الدولة إلى الشام والموصل ، أحياناً ، وإلى اليمن وغيرها من أصقاع المشرق العربي . بل إن بعض هذه الحروب قد دار في مصر نفسها ، من جانب القرامطة في بداية العصر الفاطمي ، ومن جانب الصليبيين في نهاية هذا العصر . ذلك ، أن مصر كانت مطمناً للقرامطة ، كما كانت مطمناً للفاطميين . ولقد كان للفريقين بها دعاة وأنصار ومشايخون ، ولم يضع الفتح الفاطمي الحد لأطباع القرامطة فيها ، بل لقد غزوها مرتين بعد فتحها على يد الفاطميين .

ففي شوال سنة ٣٦٠ هـ - (سنة ٩٧٠ م) ، وقبل قدوم المعز إلى مصر ، تحدث الناس بقرب وصول جيش القرامطة غازياً للبلاد ، فاستعد جوهر الصقلي للقائهم ، « وفرق السلاح على المغاربة والمصريين » . ويبدو أن مدينة « تنيس » الصناعية ، كان بها مشايخون كثيرون للقرامطة ، فانتهز أهلها الفرصة ووثبوا « على واليهم ، وقتلوا جماعة ، منهم الإمام في القبلة ا » . كما « وجدت رقاع (منشورات) في الجامع العتيق (جامع عمرو بن العاص) فيها التحذير من جوهر » (١) . وبعد أقل من ثلاثة أشهر ، (المحرم سنة ٣٦١ هـ - سنة ٩٧١ م) وصل جيش القرامطة إلى « الفرما » واحتلها ، وانتهز أهل « تنيس » الفرصة مرة أخرى ، فعصوا سلطة الفاطميين ، « وغيروا الدعوة وسوّدوا » (لبسوا السواد شعار العباسيين) ، وحاربوا جيش الفاطميين .

وفي شهر ربيع الأول من العام نفسه ، وصل القرامطة إلى أبواب القاهرة ، بل

(١) اتعاظ الحنفا : ص ١٢٩ .

ودخلت منهم جماعة من أحد أبواب المدينة ، والتحم القتال بينهم وبين جيش جوهر الذى انتصر عليهم^(١) . وبعدهما حضر المعز لدين الله إلى مصر ، حدث في شهر جمادى الأولى سنة ٣٦٣ هـ (سنة ٩٧٣ م) ، أن تحدث الناس عن غزوة ثانية لمصر حضر من أجلها الجيش القرمطى بقيادة الحسن بن أحمد القرمطى ، الذى كان يتوعد الفاطميين ، ويتحدث عن « حتمية » فتحه لمصر ، فيقول :

زعمت رجالُ الغرب أنى هبَّتْها فدمى إذا ما بينهم مَطْلُولُ
يا مَصْرُ ، إن لم أَسْتِ أَزْصِكَ مِنْ دَمٍ يَرْوِي ثْرَاكَ ، فلا سَقَاكَ النَّيْلُ^(٢) !

فاستعد المعز لدين الله للقاء الحسن القرمطى وجيشه . وكما هى العادة دائماً ، حدث للمواطن العادى ما يحدث له دائماً فى مثل هذه المناسبات ، إذ « قوى الاستخراج ، ومنع الناس من الحضور إلى الديوان ، لثلا يقفوا على مبلغه »^(٣) ! ثم تجهز المعز فى ٣ من رجب سنة ٣٦٧ هـ - (سنة ٩٧٣ م) للقتال ، وكان الجيش القرمطى قد وصل إلى بلبيس ، ووزع الفاطميون السلاح على الأشراف والعرب « وجمع من جند المصريين »^(٤) ولم يستطع الفاطميون الانتصار على القرامطة هذه المرة إلا بالخدعة والمكر . ذلك ، لأن القرامطة كانوا - وهم فى طريقهم إلى مصر - قد تحالفوا مع « حسان بن الجراح الطائى » ، أمير العرب ببلاد الشام . فجرت مراسلات بين المعز وبين حسان هذا ، اتفق فيها على أن يخون حسان عهده مع القرامطة ، فينهزم بجيشه عندما تستخدم المعركة ، وذلك فى نظير ١٠٠ ، ١٠٠ دينار ذهب يدفعها له المعز . ولقد حدث بالفعل أن أرسل إليه المعز « ببائة ألف دينار فى أكياسها ، ولكن أكثرها زغل ضرب النحاس ، وألبسه ذهباً ، وجعله فى أسفل الأكياس ، وجعل فى رءوسها الدنانير الخالصة . ولما بعثها إليه ، ركب فى أثرها فى جيشه ، فالتقى الناس ، فانهزم حسان بمن معه . فضعف جانب القرمطى ،

(١) المصدر السابق : ص ١٣٠ . وسيرة القاهرة : ص ١١٥ .

(٢) اتعاظ الخنفا : ص ٢٠٦ .

(٣) المصدر السابق : ص ١٤٨ . (٤) المصدر السابق : ص ٢٠٢ .

وقوى عليه الفاطمي فكسره ! «^(١) وفي العام نفسه ، استطاع الفاطميون أن ينتزعوا دمشق من يد القرامطة . وكان العداء بينهما ، برغم أصولهم الشيعية ، قد بلغ حدًا جعل أحد دعاة القرامطة في مدينة نابلس « يتكلم في الفاطميين ، ويقول : لو كان معي عشرة أسهم لرميت الروم بواحد ، ورميت الفاطميين بتسعة ! »^(٢) .

وإذا كان القرامطة لم يقوموا بغزو مصر الفاطمية بعد هذا العام ، فإن العداء بينهما ظل قائمًا . ولقد اتخذ هذا العداء من مناطق الشام ميادين للحرب والصراع . ووجدنا في عصر الحاكم بأمر الله زعيم القرامطة يبعث للحاكم برسائل التهديد ، والحاكم يبعث إليه بالإنذارات والوعيد^(٣) .

على أنه ينبغي لنا أن ندرك أن آثار هذه الحروب من الناحية الاقتصادية ، إنما كان يتعدى التدمير وزيادة الضرائب والخراج إلى إحداث الاضطرابات في الأسعار، مما يضر بمصالح المواطنين . وفي عهد الأيوبيين ، نجد حديثًا واقعيًا للمؤرخ العماد الذي تجهز للغزو مع صلاح الدين ، ثم ذهب إلى السوق قبل مغادرة الجيش للقاهرة ، فأغراه ارتفاع الأسعار بأن يبيع متاعه ويعدل عن الذهب للجهداء !^(٤) وذلك ، عندما يقول : « فركبت إلى سوق العسكر للابتياح ، وقد أخذ السعر في الارتفاع ، فقلت للغلامى : قد بدا لي ، وقد خطر الرجوع من الخطر ببالي ، فأعرض للبيع أحمالي وأثقالى ، وانتهاز فرصة هذا السعر الغالى ! »^(٤) ثم استأذن صلاح الدين في إعفائه من الغزو في ذلك العام !

المجاعات

على أننا نظلم الدولة الفاطمية ، إذا نسبنا المجاعات التي أصابت البلاد إلى

(١) البداية والنهاية : ج ١١ ، ص ٢٧٦ .

(٢) المصدر السابق : ج ١١ ، ص ٢٧٧ ، ٢٨٤ .

(٣) الحاكم بأمر الله : ص ٢٩٩ .

(٤) كتاب الروضتين : ج ١ ، ص ٦٩٧ .

عندها فقط ، وإذا اعتبرنا الغلاء والاضطرابات في الأسعار ظاهرة فاطمية . ذلك ، لأن هذه النواقص في النظام الاقتصادي المصري ، إنما كانت عيوباً وجراحات نابعة من طبيعية النظام الإقطاعي ، ومظهرًا من مظاهر الظلم الاجتماعي الناتج عن هذا النظام . فمنذ سنة ٣٥٢ هـ ، وقبل الفتح الفاطمي بست سنوات ، كانت البلاد تعاني من حالة غلاء شديد ، واضطراب اقتصادي استمر نحو تسع سنوات . ولقد سبقت إشارتنا إلى ذلك في أول هذه الدراسة ، وتحدثنا حينئذ عن الدور الذي لعبته هذه المجاعة في التمهيد للفتح الفاطمي . وعندما وصل جوهر الصقلي في سنة ٣٥٨ هـ (سنة ٩٦٨ م) أولى قضية الأسعار اهتمامه ، وحاول علاج هذه الحال ، فجمع سياسة الغلال ، وحدد لهم سوقاً حرم بيع الغلال في مكان آخر سواه ، ولم يجعل لبلوغ هذه السوق سوى طريق واحد ، وصار البيع والشراء لكل قذح من القمح يتم تحت إشراف المحتسب « سليمان بن عزة » ، كما قام بضرب جماعة من الطحانين ، وأركبهم ، وطيف بهم في طرقات العاصمة وشوارعها .

وبرغم هذه الإجراءات ، فلقد استمر الغلاء إلى سنة ٣٦٠ هـ (سنة ٩٧٠ م) ، مما سبب وباء وأمراضاً حصدت الكثير من الأرواح ، حتى عجز الأحياء عن دفن الأموات ، فضلاً عن تكفينهم وتجهيزهم ، وصار الناس يطرحون موتاهم في النيل ، مما ضاعف من وطأة الوباء والأمراض والوفيات . حتى إذا كانت سنة ٣٦١ هـ (سنة ٩٧١ م) ، أخذت الأسعار في الانخفاض ، وأعطت الأرض محصولاً وفيراً ، وهبت على الناس ريح الرخاء^(١) .

ولقد عاود الوباء مصر فانتشر بها ثانية في سنة ٣٦٣ هـ (سنة ٩٧٣ م) ومات بسببه خلق كثير^(٢) ، ثم عاود المجيء مرة أخرى في سنة ٣٦٨ هـ (سنة ٩٧٨ م)^(٣) .

(١) إغاثة الأمة بكشف الغمة : ص ١٣ ، ١٤ .

(٢) اتعاظ الخنفا : ص ٢١٥ .

(٣) المصدر السابق : ص ٢٤٦ .

ولم يسجل تاريخ المجاعات في مصر ، الذى أحصاه وكتبه المقريزى ، مئناً جديدة فيما تبقى من أيام المعز لدين الله ، وإن كان قد سجل اضطرابات في الأسعار بالهبوط والارتفاع ، نشأت عن انخفاض في قيمة الدراهم في عهد العزيز ، في سنة ٣٨٢ هـ - (سنة ٩٩٢ م) ، حتى هبط سعر الدراهم إلى ربع قيمتها الحقيقية ، مما أدى إلى سحب هذه الدراهم وضرب دراهم جديدة^(١) .

أما المجاعات ، التى شهدها عصر الحاكم بأمر الله ، فلقد سبق حديثنا عنها وعن الطريقة التى عولجت بها شرورها وآثارها عند الحديث عن القسامات الهامة والطريقة التى عرفت بها القاهرة في ذلك الحين .

أما مجاعات عصر المستنصر ، ومن حكم بعده من خلفاء الفاطميين ، فإن حديثنا عنها سيأتى عندما نتحدث ، بعد قليل ، عن عصر انهيار هذا النظام .

على أننا نود أن نشير إلى أن الأسباب التى كانت تقف وراء حدوث هذه المجاعات ، لم تكن هى نقصان مياه النيل فحسب ، لأننا قد رأينا عندما عاجلها الحاكم بأمر الله في سنة ٣٩٨ هـ - (سنة ١٠٠٧ م) ، كيف أزهب التجار والموسرين حتى خرجت من مخازنهم الغلال التى غطت أرض الطرقات ، مما أثبت ويثبت أن أسباب هذه المجاعات لم تكن مياه النيل التى نقصت ، بقدر ما كانت سوء توزيع الثروة في البلاد ، وسوء إدارة هذه البلاد ، وباختصار كل ما هو مرتبط بالنظام الإقطاعى الاستبدادى من مظالم وآفات وعيوب وثغرات .

وإذا كانت مظالم الإقطاع وعبوبه ، مضافاً إليها قسوة النظام الضرائبى وثقل أحمال الجبايات والمكوس ، وكذلك الحروب التى خاضتها الدولة في الداخل والخارج ، هى في مقدمة الأسباب التى ساعدت على انتشار الغلاء وحدته وتكرار دوراته ، فإن المجاعات التى شهدتها مصر إذا ما انضمت إلى هذه الأسباب

(١) المصدر السابق : ص ٢٧٤ .

اتضح لنا لدينا معالم الصورة الأخرى لمصر والقاهرة في ذلك الحين ، معالم الوجه الآخر للعملة ، وجه مصر الشعب والقاهرة الأكثرية والجهاهير ، وعلمنا لمن كانت ثمار الغنى والترف والبذخ والرخاء ، وعلى من كانت آثار المظالم الإقطاعية والجبايات والغلاءات حتى أصبحوا ما « بين فان ، وميت ، ومشته للموت في مثل هذه الظروف » !! كما يقول مؤرخنا المقریزی عندما وصف حال الشعب في ذلك التاريخ .

الفصل الثامن

مصر تقاوم

● دراسة عن الهبّات والتمردات والانتفاضات التي
صنعها الشعب ضد المظالم الاجتماعية ، التي
شهدها في ذلك العصر . . والإبداع الشعبى
الذى تجلّى في ابتكار ألوان جديدة من المقاومة .

تمردات وانتفاضات

لا يستطيع باحث يحترم الدلالات الموضوعية والدقيقة للمصطلحات ، أن يتبسط في الحديث فيزعم أنه قد حدثت بمصر الفاطمية ثورات شعبية ضد الحكم الفاطمي ، ولا أن الشعب قد نظم صفوفه لمقاومة المظالم الاجتماعية ، والآفات الإقطاعية والضرائية والحربية ، التي أشرنا إلى طرف منها منذ قليل . ذلك ، لأن كتب التاريخ لا تسعفنا بالمادة التي تؤهلنا للخوض في هذا الحديث ، حديث قيام هذه الثورات .

ونحن إذا تجاوزنا نطاق « الفولكلور » ، الذي يعتبر أصدق مرآة عبرت عن هذه القسمة من قسماث شعبنا في هذه الظروف ، وهي المرآة التي لم تصقل بعد ، ولم يتح لها المهرة من الباحثين الذين يهتمون بهذه الحقبة من حقب تاريخنا ، إذا تجاوزنا هذا النطاق ، لا نجد في جعبتنا سوى أحداث غير كثيرة ، لا يرقى تقييمنا لها إلى وضعها في مستوى « الثورة » ، وإنما يقف بها عند حدود « التمرد » و« الانتفاضة » و« العصيان ».

● ففي سنة ٣٦٠ هـ — (سنة ٩٧٠ م) ، « وثب أهل « تنيس » على واليهم (الفاطمي) وقتلوا جماعة ، منهم الإمام ، في القبلة » . وكان ذلك بتأييد معنوي من الأخبار التي تتحدث عن قدوم الجيش القرمطي لقتال جوهر الصقلي وإجلاء الفاطميين عن البلاد . وعلى الرغم من أن صفحات هذا التاريخ قد حفظت لنا نتفا كثيرة تؤكد أنه قد كان لتيار القرامطة وحركتهم في مصر أنصار وأعوان ودعاة ، فإننا نلاحظ أن مدينة « تنيس » ، وكانت مدينة صناعية ، موقعها الآن في بحيرة المنزلة بشمال الدلتا ، كانت في مقدمة المدن التي علا فيها

شأن هذه الدعوة ، واتخذت المواقف الإيجابية لصالحها ضد الفاطميين . ولعل في معرفتنا للطبيعة اليسارية لفكر القرامطة الاجتماعى ، وللصلة الوثيقة بين لون هذا الفكر وبين طوائف الحرفيين وتنظياتهم في منطقة الخليج العربى ، التى شهدت قيام قواعد دولتهم الأولى ، بل والتى لا تزال تحتفظ ببقايا مذهبهم حتى هذه الأيام ، لعل في ذلك كله بعض الأسباب التى جعلت من المدينة الصناعية — « تيس » — إحدى القواعد النشطة في مصر لهذا اللون من ألوان التفكير والنشاط .

● وفي نفس الوقت ، الذى حدثت فيه وثبة « تيس » وعصيائها ، كان « المصريون » يوزعون المنشورات ضد جوهر الصقلى ، وفيها التحذير من التعاون معه . ولقد وزع بعضها في « الجامع العتيق » (مسجد عمرو بن العاص) ، ولكن (جوهر) قد عالج قضية المنشورات هذه بأن « جمع الناس ووبخهم فاعتذروا ! »^(١).

● وفي بداية ٣٦١ هـ — (سنة ٩٧١ م) ، « عصى أهل تيس » مرة أخرى ، وكان جيش القرامطة قد استولى على مدينة « الفرما » ، وشارك كثير من المصريين في نصره القرامطة والقتال إلى صفهم حتى وصلوا إلى عين شمس ، بل لقد وصلوا أبواب القاهرة في مستهل شهر ربيع الأول من ذلك العام . ولقد كانت ضمن الاستعدادات التى اتخذها جوهر لقتال القرامطة ، والخاصة بجهة البلاد الداخلية ، اعتقال عديد من المواطنين ، والقبض « على أربعة من الجند المصريين ، وضرب أعناقهم وصلبهم » ، وكذلك تحديد محل إقامة « ابن الفرات » الذى كان وزيراً للإخشيديين ، ثم سالم الفتح الفاطمى ، والذى كان له أخ يقاتل الفاطميين في صفوف القرامطة ، فلقد احتاط جوهر للأمر فأخرج ابن الفرات من داره (بالفسطاط) وأسكنه القاهرة « وسط معسكرات الجند الفاطميين »^(٢)!

(١) المصدر السابق : ص ١٢٩ .

(٢) المصدر السابق : ص ١٣٠ .

● وفي شهر رمضان سنة ٣٦١ هـ - (سنة ٩٧١ م) ، أراد بعض سكان « مصر » استفزاز جوهر ، والإعلان عن تمردهم ورفضهم لسلطانهم ، فأطلقوا عجزواً تنشد في الطريق أناشيد لا يرضاها الفاتحون اقبض عليها أنصار جوهر ، وحبسوها ، « ففرح جماعة من الرعية ، ونادوا بذكر الصحابة ، وصاحوا : معاوية خال المؤمنين ، وخال على ا » (١) . فبعث جوهر إلى الجامع العتيق من يحد الناس من مغبة ذلك ، ويتوعدهم « بالعقوبة الموجعة » ، كما أعلن تراجعهم عن حبس العجزوز ، وأفرج عنها ، وقال : « إننا حبسنا العجزوز صيانة لها ا » (٢) .

● وفي نفس التاريخ ، كان صعيد مصر يشهد حركة تمرد وخروج على سلطان جوهر لعلها من أخطر الحركات التي قاومت سلطانه في ذلك الحين ، وذلك بحكم حدودها في منطقة بعيدة عن معسكرات جنده ، وصالحه للتجمع والتنظيم والإعداد . فلقد « خرج عبد العزيز بن إبراهيم الكلابي ، بالصعيد ، وسوّد (أى لبس السّواد ، وهو شعار العباسيين) ، ودعا لبني العباس » . وأمام حجم هذا التمرد وخطورته ، أرسل إليه جوهر بجيش برى يقوده أحد قادته المسمى « أزرق » ، وقوة بحرية عن طريق النيل تتألف من أربعين مركباً يقودها « بشارة النوبى » . واستطاعت هذه الحملة أن تقضى على هذا التمرد ، وأن تعود إلى القاهرة بعبد العزيز بن إبراهيم الكلابي مصفّداً بالأغلال داخل قفص حديدي ، ثم « طيف به وبمن معه » من الأسرى في شوارع العاصمة (٣) .

ونحن نلاحظ أن هذه العصيانات والتمردات وعمليات الخروج التي قام بها المصريون ضد سلطان جوهر الصقلي وسلطاته ، لم تكن موحدة الهدف ، ولا

(١) كان أعداء الشيعة يقولون أن معاوية خال المؤمنين . . بمن فيهم على - لأنه أخو صفيّة بنت

أبى سفيان ، زوج الرسول ، وأم المؤمنين !!

(٢) المصدر السابق : ص ١٣٠ ، ١٣١ .

(٣) المصدر السابق : ص ١٣١ .

المنطلق ، ولا القاعدة . ولا أدل على ذلك ، من أن أهل « تنيس » عندما ثاروا إلى جانب القرامطة ، لم يرفعوا أعلام القرامطة ، بل سوّدوا ورفعوا شعارات العباسيين ، كما صنع ذلك تمرد الصعيد . وإذا كان ذلك مفهومًا ، بحكم أن السلطة التي أزاها الفاطميون من مصر كانت ، في ظاهرها ، عباسية ، وبحكم اللقاء « التكتيكي » وغير المبدئي ، الذي كان قائمًا بين القرامطة والعباسيين ضد الفاطميين ، فإن الشعارات التي لم تكن مفهومة ، هي تلك التي رفعها متمردو الفسطاط والمتمردون من طائفة (الصيارفة) في سنة ٣٦٢ هـ - (سنة ٩٧٢ م) ، الذين صاحوا : « معاوية خال المؤمنين ، وخال على ! » . فلم يكن الأمويون ، الذين دالت دولتهم بالشرق منذ أكثر من قرنين من الزمان ، بواردين أصلًا في هذا الصراع ، مما يؤكد أن بعض هذه التمردات والانتفاضات لم يكن ليخرج عن حدود الاستفزاز غير المنظم ، و « الإغاظه » المؤقتة لسلطان الفاتحين الفاطميين ! .

● وفي آخر ذى الحجة سنة ٣٦١ هـ - (سنة ٩٧٢ م) ، وكان جيش القرامطة الغازي قد تمت هزيمته ، شرع الجنود الفاطميون المغاربة في الانتقام من المصريين ، الذين أيد بعضهم الغزو القرمطي ، والذين تمرد بعضهم منتهزًا فرصة هذا الصراع ، فقاموا بعمليات سلب ونهب واسعة النطاق في « مواضع » من مدينة الفسطاط ، « فثارت الرعية ، فاقتتلوا قتالاً شديدًا » . ولقد عالج جوهر هذه السلسلة من ردود الأفعال المتبادلة بالسياسة والكياسة ، فبعث بقائده « سعادة بن حيان » إلى مكان الأحداث ، وقدر الخسائر التي لحقت بالمصريين ، « وغرم للناس ما نهب لهم ، وقبل قلوبهم في ذلك » ^(١) التقدير .

● وفي ربيع الأول سنة ٣٦٢ هـ - (سنة ٩٧٢ م) ، حدث « شغب مهني » ، إن جاز التعبير ، قام به جمع من الصيارفة ، بسبب التغييرات التي أخذت السلطة الجديدة تجربها في الأجهزة الإدارية والمالية بالبلاد . فلقد عزل المحتسب الجديد « سليمان بن عزة » « جماعة من الصيارفة ، فشغب طائفة منهم ، وصاحوا : معاوية

(١) المصدر السابق : ص ١٣١ .

خال على بن أبي طالب ! فهم جوهر بإحراق رحبة الصيارفة (دار ديوانهم) ،
لولا خوفه على الجامع « جامع عمرو بن العاص » (١) .

● ويبدو أن مدينة « تنيس » قد عاودت المقاومة مرة أخرى إلى جانب القرامطة ،
فلقد وصلها أسطول للقرامطة في شهر ذى القعدة سنة ٣٦٢ هـ - (سنة
٩٧٣ م) ، ودارت فيها معارك انتهت بانتصار الفاطميين ، حتى إذا كان الشهر
التالى قام جوهر بإحضار جماعة من أهل « تنيس » ، وفرض عليهم ديوات القتلى
المغاربة الذين قتلوهم أثناء تمردهم إلى جانب القرامطة ، وطلب منهم
٢٠٠٠ ، ١٠٠٠ دينار ، « ثم استقر أمرهم على ألف ألف درهم » (٢) .

● ولكن المغاربة لم يكتفوا بهذه الديوات التى دفعها أهل « تنيس » ، فحدث فى
المحرم سنة ٣٦٣ هـ - (سنة ٩٧٣ م) ، أن أخذ المغاربة فى اقتحام المساكن
المصرية بالعاصمة ، وخاصة فى أحياء « القرافة » و « المعافر » ، واحتلالها ،
« فنزلوا المدينة ! » ، علماً بأنه قد كان محظوراً عليهم تجاوز « الخطط » الخاصة
بهم ، والمعسكرات التى أقيمت لهم . فتظاهر الناس ، « واستغاثوا إلى المعز » ،
فأمر بأن يترك المغاربة هذه المساكن لأصحابها ، وأن يسكنوا بدلاً منها فى
ضاحية « عين شمس » . وبذلك ، بدأ المغاربة ، شيئاً فشيئاً ، يتجاوزون سور
القاهرة الأول الذى بناه جوهر ، ويخالطون المصريين ، ويشاركونهم السكنى ،
حتى سكن « أكثرهم فى المدينة - (الفسطاط) - مخالطين لأهل مصر » ، مما فتح
صفحة جديدة فى التفاعل والانصهار بين هذه الفئات ، التى وإن تصادمت
مصالحها فى البداية كثيراً ، إلا أن روابط العروبة والإسلام ، ثم المعاشية المشتركة
والمصالح الموحدة التى أفرزتها الحياة ، قد صهرتهم جميعاً ووحدت بينهم بمرور
الأيام والأعوام .

● وفى نفس الشهر ، الذى اقتحم فيه المغاربة بيوت المصريين ، وفى يوم العاشر

(١) المصدر السابق : ص ١٣٢ .

(٢) المصدر السابق : ص ١٤٢ ، ١٤٣ .

منه (يوم عاشوراء) على وجه التحديد ، كادت أن تحدث اصطدامات مروعة . ذلك أن المصريين قد تحفزوا لرد عدوان المغاربة ، عندما اعتدوا على أسواقهم ، « وكسروا أواني السقائين في الأسواق ، وشققوا الروايا (القرب) ، وسبوا من ينفق (ويتعامل) في هذا اليوم » ، وذلك أثناء رجوعهم صائحين باكين في ذكرى استشهاد الحسين ، من قبر السيدة « نفيسة » ، و « كلثم بنت محمد بن جعفر بن محمد الصادق » . ولكن أبا محمد الحسن بن عمار ، قائد كتامة ، قد سارع لتهدئة الخواطر ، مما أوقف رد فعل المصريين الذين كانوا قد « أغلقوا الدكاكين ، وعطلوا الأسواق ، استعداداً للقتال ! » (١) .

● وفي يوم عيد الفطر من العام التالي سنة ٣٦٣ هـ (سنة ٩٧٣ م) ، تجددت الاضطرابات بين الفريقين مرة أخرى ، و « ثارت فتنة بين المصريين والمغاربة ، فقبض على جماعة (من المصريين) وضربوا » (٢) .

● فإذا ما انقضى عهد المعز لدين الله ، وجاء عهد العزيز ، استمرت صفحات التاريخ في إمدادنا بهذه التتف ، التي تضمن لهذه القسمة إمكانيات الدوام والاستمرار .

ففي مواجهة إغراق الشيعة الفاطمية في تقديس الأئمة أمراء المؤمنين ، وفي مواجهة ما يعتقدونه من عصمة الإمام ، وما يزعمه بعضهم من علمه للغيب وانفراده بالتعليم والتأويل ، نجد سخرية المصريين من هذه الأفكار ، وتعبيرهم عن هذه السخرية بالوسائل المختلفة ، ومن بينها الشعر ، الذي كانوا كثيراً ما يكتبونه في المنشورات . فعندما يصعد العزيز إلى المنبر ليخطب الناس في أحد الأيام ، يجد أمامه تلك البطاقة (المنشور) التي يقول فيها كاتبها :

بِالظُّلْمِ وَالْجَوْرِ قَدْ رَضِينَا وَلَيْسَ بِالْكَفْرِ وَالْحِمَاةِ
إِنْ كُنْتَ أَعْطَيْتَ عِلْمَ غَيْبٍ فَقُلْ لَنَا كَاتِبَ الْبِطَاقَةِ (٣) ١١

(١) المصدر السابق : ص ١٤٥ ، ١٤٦ . (٢) المصدر السابق : ص ٢٢٣ .

(٣) الحاكم بأمر الله : ص ٢٤٦ .

● وإذا كان صاحب هذه الأبيات قد أخفى شخصيته ، وتحدى العزيز أن يعلم من هو ، فإننا نجد المقرئ يحدثنا عن شاعر آخر ، سبقت إشارتنا إليه ، هو «الحسن بن بشر» ، ذلك الذى أخذ على عاتقه «هجاء» العزيز، و«نقد» تصرفاته ، و«الهجوم» على حاشيته ووزرائه وقواده .

ونحن نلمح فى مقدمة المثالب والعيوب التى يرمى بها الحسن بن بشر حكم العزيز وشخصيته ، ضعف شخصية الخليفة ، وقوة نفوذ وزيره يعقوب بن كلس ، والسيطرة المسيحية التى كانت فى بلاط الفاطميين فى ذلك التاريخ .

فى بعض قصائده ، يهجو الخليفة والوزير وكاتب الإنشاء أبا نصر عبد الله ابن الحسين القيروانى ، فيقول :

قل لأبى نصر كاتب القصر	والتأتى لنقض ذلك الأمر
انقض عرى الملك الوزير	تفزم منه بحسن الشنا والذكر
واعط وامنع ، ولا تحف أحدا	فصاحب القصر ليس فى القصر
وليس يدري ماذا يراد به	وهو إذا درى فما يدري

وفى قصيدة أخرى ، نجده يتناول فى أحد أبياتها بالذم العنيف والهجاء الشديد: الخليفة ، والوزير ، و «رباح» نديم الخليفة ، عندما يقول :

زيارجى نديم ، وكليسى وزير نعم ، على قدر الكلب يصلح الساجورا
ولقد دفع هذا الشاعر - الذى سبق أن قدمنا نقده لسيطرة المسيحيين على بلاط
العزيز - رأسه ثمنا لموقفه هذا ، عندما قبض عليه ، وحبس ، ثم أمر يعقوب بن
كلس بقتله قبل أن يعفو عنه العزيز (١).

● وإذا كنا قد سبق أن أشرنا إلى ألوان من التظاهرات والتمردات والانتفاضات ،

(١) اتعاظ الحنفا : ص ٢٩٨ .

التي حدثت على عهد الحاكم بأمر الله ، لأسباب اقتصادية تعلقت بالمجاعات والأزمات والغلاء ، ولأسباب فكرية تعلقت بشذوذ بعض المراسيم التي أصدرها ، وغلوها من وجهة النظر السلفية السنية ، فإننا نستطيع أن نضيف إلى تلك الوقائع والأحداث تلك الإشارة التي نلمحها في مصادر تاريخ هذه الفترة ، والتي نتحدث عن قيام ثورة دامت عامين كاملين ، و « طالما أحدثت القلاقل في مصر » ، وكيف استطاع الحاكم أن يخمدها ، وإن يكن قائده الذي قاد عملية إخمادها لم ينج من القتل على يد الحاكم في تلك الحملات الشهيرة من الاغتيالات^(١).

● وإذا كانت التظاهرات والمنشورات والقتال المسلح ، قد كانت وسائل للمقاومة ، استخدمها الشعب في تلك الفترة ، على ما ذكرنا ، فإن هناك وسيلة طريفة تجمع إلى جانب التعبير جوانب من الفن ، وربما من الرهبة والخوف كذلك ، وهي تلك التي تمثلت في التماثيل التي كان الشعب يصنعها من الورق على هيئة الإنسان ، ليحملها العرائض والشكايات والمظالم ، ثم ينصبها في طريق الحاكم بأمر الله ، ومن قبله العزيز ، ليرفع عن طريقها صوته ، ثم لا يقع في قبضة الغضب والإرهاب !

ولم تكن هذه الوسيلة خاصة من خصائص عصرى الحاكم والعزيز فقط ، بل إن ابن كثير يحدثنا أن الناس كانوا يكتبون ظلاماتهم للحاكم ، « ولأسلافه في صورة قصص . . حتى إن أهل مصر عملوا صورة امرأة من ورق بخفيها وإزارها ، وفي يدها قصة بها من الشتم واللعن والمخالفة شيء كثير ، فلما رآها ظنها امرأة ، فذهب من ناحيتها ، وأخذ القصة من يدها ، فقرأها ، فرأى ما فيها ، فأغضبه ذلك جدًّا ، فأمر بقتل المرأة . فلما تحققها من ورق ، ازداد غيظًا إلى غيظها »^(٢) . حتى لقد قيل إنه أضمر الانتقام من أهل الفسطاط جميعًا بسبب هذه الحادثة .

(١) الحاكم بأمر الله : ص ١٣٥ .

(٢) البداية والنهاية : ج ١٢ ، ص ٩ .

فلما جاء شهر جمادى الآخرة سنة ٤١١ هـ - (سنة ١٠٢٠م) ، جعل العبيد يغيرون على المدينة وينهبونها . ثم اشترك معهم الترك والمغاربة ، فأضرموا النيران في أطراف الفسطاط ، وهب سكان المدينة يقاتلون دون مدينتهم وثرواتهم . واستمرت هذه المعركة أياماً ثلاثة . وعندما استفحل الأمر ، وأصبحت المدينة قاب قوسين أو أدنى من الدمار الشامل ، انقلب الأتراك والمغاربة إلى صف الأهالي ، وتحالفوا معهم ضد العبيد ، وذلك خوفاً على أقاربهم وذويهم الذين كانوا يسكنون المدينة ، وطالبوا الحاكم بمنع العبيد ، وهددوه بالإغارة على القاهرة وحرقها ، فاضطر لوقف هجوم العبيد ، وأصدر للناس مرسوماً بالأمان قرىء على منابر المساجد^(١)!

● وقبل هذه الحادثة الشهيرة والخطيرة في عصر الحاكم ، كان شغب قد وقع بين السلفيين « السنين » وبين الشيعة ، جعل الحاكم بأمر الله يعيد النظر في موقف الغلو والانحياز الشديد لفكرية الشيعة ضد السلفية ، على الأقل فيما يتعلق بالمستوى الجماهيري ، فأصدر في رمضان سنة ٣٩٨ هـ - (سنة ١٠٠٧م) مرسوماً على جانب كبير من الأهمية يدعو فيه إلى التقريب بين المذاهب الإسلامية ، جاء فيه :

« لا إكراه في الدين . . مضى أمس بما فيه ، وأتى اليوم بما يقتضيه . معاشر المسلمين : نحن الأئمة ، وأنتم الأمة . . من شهد الشهادتين . . ولا يحل عروة بين اثنين ، تجمعهما هذه الأخوة ، عصم الله بها ما عصم ، وحرم عليها ما حرم . . يطوى ما كان فيما مضى فلا ينشر ، ويعرض عما انقضى فلا يذكر ، ولا يقبل على ما مر وأدبر من إجراء الأمور على ما كانت في الأيام الخالية ، أيام آبائنا الأئمة المهديين . يصوم الصائمون على حسابهم ويفطرون ، ولا يعارض أهل الرؤية فيما هم عليه صائمون ومفطرون . وصلاة الخميس للذين بها جاءهم فيها يصلون ، وصلاة الضحى وصلاة التراويح لا مانع لهم منها ولا هم عنها يدفعون . يجُمس في التكبير على الجنائز الخمسون ، ولا يمنع من التكبير عليها المربعون . يؤذن

(١) الحاكم بأمر الله : ص ١٩٥ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨ .

بحى على خير العمل المؤذنون ، ولا يؤذى من بها لا يؤذنون . لا يسب أحد من السلف ، ولا يحتسب على الواصف فيهم بما وصف ، والخالف فيهم بما خلف . لكل مسلم مجتهد فى دينه اجتهاده . ليكن ، عباد الله ، على مثل هذا عملكم منذ اليوم ، لا يستعلى مسلم على مسلم بما اعتقده ، ولا يعترض معترض على صاحبه فيها اعتمده» (١).

● وإذا كنا نعتقد بالأهمية الكبرى لهذه الوثيقة ، التى أصدرها الحاكم بأمر الله فى رمضان سنة ٣٩٨هـ فى الأمور التى تتعلق بشئون الدين والاعتقادات ، والثى حوت أفكاراً وقيماً لا يزال المسلمون المستنثرون يجاهدون فى سبيل سيادتها وتطبيقها حتى فى عصرنا هذا ، عندما يتحدثون عن التقارب بين المذاهب والفرق الإسلامية ، فضلاً عن توحيدها ، فإننا نلتقى فى العصر الفاطمى بوثيقة أخرى ذات أهمية بالغة ، كادت أن تكون دستوراً اضطرت الشعب الخليفة العزيز إلى كتابتها وإصدارها ، ثم أخذ الناس فى نسخها وتداولها ، بل وجعلوا منها مادة يعلمونها الصبيان فى دور العلم ، ويتعلمون بواسطة قراءتها وكتابتها القراءة والكتابة فى الكتاتيب مثلها فى ذلك مثل القرآن الكريم .

فالمقرئى ، ينقل لنا عن الوزير المؤرخ المعاصر للدولة الفاطمية ابن الصيرفى (المتوفى سنة ٥٤٢هـ - سنة ١١٤٧م) وصاحب كتاب (الإشارة إلى من نال الوزارة) ، أنه قد حدث فى سنة ٣٧٧هـ - (سنة ٩٨٧م) أن أحد التجار الغرباء الذين كانوا يزورون القاهرة لأمور تتعلق بالتجارة قد قتل فى المنزل الذى كان ينزل فيه فى « قيسارية الإخشيد » خلف جامع عمرو بن العاص ، وأخذ ما كان بحوزته من الأموال . ويبدو أن القاتل السارق كان أحد رجالات الدولة ، واسمه «رشيق» ، الذى كان يتولى أحد المناصب المهمة فى « الشرطة السفلى » (بوليس مدينة الفسطاط) . وحتى يغطى فعلته ، ألقى القبض على مجموعة من أبناء

(١) المصدر السابق : ص ١٤٧ (نقلاً عن : ابن خلدون ج ٢ ، ص ٦٠).

التجار المصريين والسكان المجاورين لمكان الجريمة ، ولكن الناس شنعوا عليه ، وعلت أصواتهم بالالتهامات ، ورفعوا إلى الخليفة أن « رشيق » هذا هو الذى ارتكب الجريمة ، وأنه قد « دس على الرجل من قتله وأخذ ماله . . وأنه اعتقل أبرياء مستورين » . فما كان من الخليفة العزيز إلا أن استجاب لهذه العريضة التى رفعها شعب الفسطاط ، وكتب على ظهرها فى شهر ذى الحجة من نفس العام ذلك « التوقيع » الذى تلقفه الشعب واعتبره « ميثاقاً » على جهاز الحكم ، تقوم على هدى من قواعده ومعايره العلاقة بين الحاكمين والمحكومين .

ولقد جاء فى هذا التوقيع ، الذى وجهه الخليفة إلى وزيره يعقوب بن يوسف بن كلس ، ما يلى :

« سلم الله الوزير ، وأبقى نعمته عليه .

هذه رقعة رفعت إلينا بالأمس . الوزير - سلمه الله - يطلع عليها ، ويتدبرها . والأمر ، والله ، فظيح ، يسوء الأولياء ويسر الأعداء . وبالأمس ، كنا نضحك من « فَنَّا حُسْرُو » ، واليوم أجمعنا بعار منى علينا فى بلد نحن ساكنوه ، والأخبار تسير به فى البلدان . وحسبك بقتل الأنفس فى مواضع الأمن والطمأنينة فى وسط عمارة المسلمين ، وتؤخذ الأموال . وقد وكل الأمر إلى رجلين (قادة الشرطة) لا يخافان الله ، عز وجل ، ولا يتقيانه . والدنيا فانية ، والأجال متقاربة ، وإن أصبح الإنسان فما يدرى أنه يمسى .

فوالله ، لو جرى مثل هذا فى بلد بعيد عنا لوجب الاحتساب لله فيه ، فكيف تحت كنفنا وفى بلدنا ؟!

فليستقص الوزير سلمه الله ، عن هذه القصة ، ويوتر الله ويوترنا (أى يقتص) ، ويغسل هذا العار عن الدولة ولا يغمها به . فوالله الذى لا إله إلا هو ، وحق جدى ، رسول الله ، ﷺ ، ما كتبت هذه الرقعة إلى الوزير ، سلمه الله ، إلا وأنا خائف من نقم الله ، جل اسمه ، لكثرة تغافلنا وإهمالنا إلى أن صارت المعاملة فى سفك الدماء وقتل الأنفس . فليس على هذا صبر ، ولا بد لك من الاستقصاء

على هذه القصة ، فأوثق الناس إلى أن تنكشف ، فينتقم من فاعلها ، وتبرأ إلى الله تعالى منه ، فيعمل الوزير ، سلمه الله ، في ذلك عملاً يأجره الله عليه ونشكره ، ولايتوانى عنه . فليس ما تغسله عن أنفسنا بانكشاف هذه القصة قليلاً عند الله ، جل وعلا ، وعند عبيده من بعده .

وأنا أقسم على الوزير بحياتي ألا يتوانى عن هذا الأمر ، ويسرع بالفراغ منه ، وخلاص هؤلاء الرجال المساكين (المعتقلين) من مديد من يطلب أموالهم وأنفسهم ظلماً وعدواناً .

والشرط والولاية قد صارت إرثاً ، فليُنظر الوزير ، سلمه الله ، أن يولى الشرطتين إنسانين يخافان الله ، عز وجل ، ويتقيانه ، فلا جمع الله مالهما ولا ما يجيء منهما بتقلد .

فقدم ما أمرناك به في الوجوه ، وأظهره في الناس لتطيب أنفسهم ، وليعلموا أنا لا نغفل عن شيء يبلغنا الله فيه رضا ، ولهم فيه صيانة .
والله حسبي ، وعليه توكل ، والسلام على الوزير ورحمة الله .

وينقل لنا المقرئى تعليق ابن الصيرفي على هذا « التوقيع » ، الذى لم يصلنا كاملاً ، بقوله : « فنسخ أهل مصر هذا التوقيع ، وصار الصبيان في المكاتب يعلمونه كما يعلمون الحمد »^(١) ، أى سورة الفاتحة التى تبدأ بالحمد لله .

(١) اتعاظ الحنفا : ص ٢٦٣-٢٦٦ .

الفصل التاسع

أسباب الاضمحلال

- دراسة للعوامل الاجتماعية والسياسية والحربية التي عجلت بنهاية النظام الفاطمي ، والآثار الفكرية التي أثمرتها هذه العوامل ، فساعدت على أن تراث الدولة الأيوبية العسكرية خلافة الفاطميين .

غروب شمس الفاطميين

على أن « الوثائق » و « المواثيق » و « التوقيعات » ، ما كان لها وحدها ، مهما كانت عباراتها ثورية ومتقدمة ، ومهما كانت حاوية للحديث عن قيم العدالة والإنسانية ، أن تضمن لقيمها هذه بلوغ مرحلة التطبيق ، فضلاً عن الحفاظ على الاستمرارية والنقاء لهذا التطبيق . وليس بغير الرأي العام المنظم ، يستطيع شعب من الشعوب أن يجنى ثمار هذه الوثائق والمواثيق والتوقيعات . والأمر المؤكد ، أن اختلال هذا الشرط في مصر الفاطمية هو الذي حَرَمَهَا أن تجنى ثمار هذا « التوقيع العزيزي » المهم ، كما حرّمها من بعد ذلك أن تحافظ على تلك الصحوّة التي قد صنعها الحاكم بأمر الله ، عندما تغلب على المجاعات ، وأباد الكثير من العناصر القبلية والعسكرية التي كانت تتصارع على السلطة والسلطان ، وتمزق شخصية المجتمع كل التمزيق .

الشدة المستنصرية

ونحن إذا استعرنا ، ولو للحظات ، تلك القصة التي تربط بدء تأسيس القاهرة بظهور النجم « القاهر » ، وترمز به إلى طالع الدولة الفاطمية في مصر ، فإننا نستطيع أن نقول إن هذا النجم وذلك الطالع الفاطمي قد أخذ في الأفول ، منذ أن بدأت سلسلة المجاعات الرهيبة التي عرفتها البلاد في عهد الخليفة المستنصر (١٠٣٥ - ١٠٩٤ م ، ٤٢٧ - ٤٨٧ هـ) ، والتي بدأت أولها سنة ٤٤٤ هـ - (سنة ١٠٥٢ م) . وإذا كانت مدة حكم المستنصر قد ضرب بها المثل في

الطول الزمني ، فإنها قد ضرب بها المثل كذلك في تكرار المجاعات وشدتها ، حتى كادت أن تتصف بالدوام وأن تعجز عن تصويرها الأقلام !!

● ففي سنة ٤٤٤ هـ - (سنة ١٠٥٢ م) ، وقع غلاء شديد نتج عن نقصان ماء النيل . ولكن هذا الغلاء ، لم يلبث أن تحول إلى مجاعة بسبب من سوء تدبير الوزير أبي محمد الحسن بن علي بن عبد الرحمن اليازوري . فلقد كان هذا الوزير، كما أشرنا من قبل ، راعياً للفن والفنانين ، ولكن يبدو أن ثقافته الاقتصادية وخبرته في التجارة وقوانين الأسواق ، كانتا دون تذوقه للفن بكثير !

فلقد حدثت منافسات غير مشروعة بين عامة الخبازين وبين « العريف » (الرئيس) الذي كان يتولى مشيخة هذه الحرفة . وكان سعر الخبز يومها : « أربعة أرتال بدرهم وثمان » . فنزلت به المنافسة الكيدية غير المشروعة من جانب عامة الخبازين ضد رئيسهم ، إلى « عشرة أرتال بدرهم » . وفرح الوزير بذلك ، ولم يبصر عواقبه الاقتصادية ، بل وكافأ الذين بدءوا هذه المنافسة !!

وكانت العادة قد استقرت أن تودع بمخازن الخليفة كميات من القمح ، احتياطاً للطوارئ ، تبلغ قيمتها ١٠٠, ١٠٠ دينار ، ولكن الوزير الفنان لم ير ضرورة للمحافظة على هذا التقليد ، لأن القمح متوفر في الأسواق ، ورخيص السعر ، والخبز معروض على الناس بأسعار يتزايد رخصها يوماً بعد يوم ، فعلام يكون تخزين هذه السلعة ذات الأسعار غير الثابتة ؟! وبدلاً من القمح ، قام الوزير اليازوري بتخزين العسل والخشب والحديد والرصاص !!

وبعد ثلاث سنوات من تطبيق هذه السياسة الخرفاء ، وعندما حدث نقص في منسوب مياه النيل في سنة ٤٤٧ هـ - (١٠٥٥ م) ، لم يكن لدى الدولة من مخزون القمح « إلا جريات من في القصور ، ومطبخ السلطان وحواشيه لا غير ! » .

وانتهز التجار الفرصة ، فأخذوا في تخزين القمح وإخفائه ، بل وقاموا بشراء محصوله من الزراع قبل نضجه . واضطربت أحوال البلاد ، ومات الوزير اليازوري في هذه الظروف . وضجت الرعية مخاطب المستنصر مباشرة ، حتى

بلغت عرائضها وشكاياتها وظلاماتها التي تصل إليه ثمانمائة شكاية فردية وجماعية في اليوم الواحد . ولمدة خمس سنوات عاشت البلاد في فوضى ، تغلب أثناءها الأقوياء من العمال على نواحيهم واستبدوا بأمورها ، وحدثت المصادرات لمن عنده شيء يصادر ، وامتد النهب والسلب إلى ممتلكات الخليفة حتى « أحوجوه إلى بيع أغراضه » ومتاعه وحاجياته^(١) !

● وبعد مرور خمس سنوات ، بدأت في سنة ٤٥٧ هـ (سنة ١٠٦٤ م) المجاعة الكبرى التي عرفت باسم « الشدة المستنصرية » ، والتي قصمت ظهر النظام الفاطمي ، وأدت إلى عصر سيادة الجند والوزراء . ولقد بدأت هذه المجاعة بنقصان في مياه النيل ، صاحبه انتشار وباء شديد الفتك بالناس . وصادف ذلك كله ، « ضعف السلطنة ، واختلال أحوال المملكة ، واستيلاء الأمراء على الدولة ، واتصال الفتن بين العربان »^(٢) ووجد المستنصر نفسه وجهاً لوجه ، حيال « الخوارج الذين سعوا في دولته ، وبدلوا نعمة الله كفرةً ، وعصوا لولي أمرهم أمراً ، واستفسدوا أصناف عسكره عليه ، وأوحوا إلى المشاركة بأن أمير المؤمنين يقوى عليكم المغاربة ، وإلى المغاربة بأنه يقوى عليكم المشاركة ، وأغروهم بالإلحاف في السؤال ، بأن يعطيهم ما ذخره في خزانته من الأموال ، وكانوا يطلبون شيئاً فشيئاً ، وكان أمير المؤمنين لا يدفعهم عن طلب شيء ، حتى أمست خزانته من المال بلقماً - (خاوية) - ونفذ ما ألفه هو وأباؤه الطاهرون ، عليهم السلام ، أجمعاً ! »^(٣) ، حسب تعبير المستنصر نفسه .

وفي هذه الشدة ، التي استمرت سبع سنوات ، حدثت للشعب المصري مأساة يعجز الخيال المعاصر والحضيب عن الإحاطة بجوانبها وأبعادها . فرغيف الخبز ، بيع كما تباع التحفة النادرة « بزقاق القناديل » بمدينة الفسطاط ، « بخمسة عشر

(١) إغاثة الأمة بكشف الغمة : ص ١٨ - ٢٣ .

(٢) المصدر السابق : ص ٢٤ .

(٣) السجلات المستنصرية : ص ١٨٣ .

دينارًا « !! وأردب القمح بلغ سعره ثمانين دينارًا !! وبدأ الناس في ذبح الماشية التي نجت من الوباء فأكلوها ، ثم ذبحوا الخيل والبغال والحمير فأكلوها ، ثم ذبحوا القطط والكلاب فأكلوها !! ولقد بلغ من ندرة الكلاب ، بسبب ذلك ، أن بيع أحدها ، كى يؤكل ، بخمسة دنانير !! ثم وصلت المأساة إلى الحد الذى أكل الناس فيه لحوم بعضهم البعض ، وتألفت لذلك عصابات تلعو أسطح المنازل ويبيدها « سلب وحبال فيها كلاليب ، فإذا مر بهم أحد ألقوها عليه ، ونشلوه في أسرع وقت ، وشرحوا لحمه وأكلوه !!

ولقد جاء الوزير يومًا للقاء المستنصر ، فهجم الجياع الذين تجمهمروا حول القصر على بغلته ، وأكلوها !! فما كان منه إلا أن شنق جماعة منهم ! فما كان من الجمهور الجائع إلا أن أكل جثث المشنوقين !!

ولقد بلغت المأساة قمتهما ، عندما باع الخليفة كل ما يملك ، ولم يبق له سوى « حصير » يجلس عليه ، وجراية من الخبز تتصدق عليه بها يوميًا ابنة أحد العلماء !! وعندما كانت نساء القصور يخرجن ، ناشرات شعورهن ، يصرخن : الجوع ! الجوع ! يردن الخروج من المأساة والهرب إلى العراق العباسى ، فلا تسعفهن الأجسام والقوى ، فيسقطن صريعات عند المصل !! وعندما نهب الجياع الثائرون المكتبة المستنصرية ، وكان بها يومئذ ٢٠٠,٠٠٠ كتاب^(١) !!!

وكما سبق أن أشرنا ، عند الحديث عن المجاعات ، التى اعترضت نظام الحاكم بأمر الله ، إلى دور سوء الإدارة والظلم الاجتماعى واحتكار التجار والموسرين للغلال ، وهم الذين قال المقرئى إنهم يستفيدون من المحن والشدائد ، فإننا نشير هنا إلى أن عمق هذه المأساة وشدّة هذه المجاعة ، لم تكونا تعنيان أن البلاد قد نخلت من مخزون الغلال المكسب لدى التجار والموسرين . وذلك ، بدليل ما حدث بعد أن بلغ المستنصر أن امرأة اشترت كمية من الدقيق بمبلغ ألف

(١) إغاثة الأمة بكشف الغمة : ص ٢٤ ، ٢٥ . وتاريخ العرب : ج ٣ ، ص ٧٤٥ .

دينار ، فأخذ الناس ينهبون دقيقتها هذا وهى فى الطريق إلى المنزل ، حتى لم يتبق لها منه سوى حفنة واحدة نهبتها هى الأخرى مع الناهيين ، فخبزتها قرصة ، ثم ذهبت إلى مرتفع أمام قصر المستنصر ، ونادت بأعلى صوتها قائلة : « ياهل القاهرة اادعوا لمولانا المستنصر ، الذى أسعد الله الناس بأيامه ، وأعاد عليهم بركات حسن نظره ، حتى تقوّمت على هذه القرصة بألف دينار » !! . وعند ذلك امتعض المستنصر ، وهدد الولى بالإعدام إن لم ينقذ ما يمكن إنقاذه من أحوال الناس . فجمع الولى تجار البلاد ، ثم جاء بعدد من المسجونين الذين ينتظرون تنفيذ حكم الإعدام ، وألبسهم زى كبار التجار والسّراة والأعيان ، وأخذ يدخلهم واحداً واحداً إلى مجلس التجار ، ويعنفهم على حبسهم للغلال ، ورفعهم للأسعار ، ثم يأمر بقطع رقابهم ، الواحد بعد الآخر ، حتى خاف التجار أن تدور الدائرة على رقابهم ، فاعتذروا للولى ، ورجوه إطلاق سراحهم على أن يصلحوا شأن الحالة الاقتصادية للبلاد ، وقالوا له : « أيها الأمير ا فى بعض ما جرى كفاية . ونحن نخرج الغلة ، وندير الطواحين ، ونغمر الأسواق بالخبز ، ونرخص الأسعار على الناس ، ونبيع الخبز رطلا بدرهم » . فرفض الولى هذا السعر ، قائلاً : « ما يقنع الناس منكم بهذا » فاتفقوا على أن يكون سعره رطلين بدرهم واحد ، فأجابهم إلى طلبهم ، ووفواهم أيضاً بما شرطوه (١)!

سيطرة العسكر

ولقد أدت هذه الشدة ، التى لم يسبق لها مثيل فى تاريخ مصر ، إلى أن استدعى الخليفة المستنصر حاكم « عكا » العسكرى ، الأرمنى الأصل ، بدر الجمالى على رأس جيش من رجاله ، كى يعيد الأمن للبلاد ، وليتولى الوزارة فى سنة ٤٦٧ هـ- (سنة ١٠٧٥ م) . وعندما دخل بدر الجمالى قصر المستنصر ليتقلد الوزارة ، « برز أمير المؤمنين من حجرات قصره إلى إيوانه ، فأفاض عليه حلة شرف

(١) إغاثة الأمة بكشف الغمة : ص ٢٥-٢٧ .

كانت على جثمانه ، ونزع عن منكبه سيف الاقتدار ، وقلده تقليد جده لأبيه بذى الفقار (١) . وفوض إليه أمور الملك الذى استخلفه الله تعالى على سلطانه ، خلافة عنه فى دينه ودنياه ، ورفعاه إلى محل لا يستحقه سواه (٢) ولقبه « بالسيد الأجل ، الأفضل أمير الجيوش ، سيف الإسلام ، ناصر الإمام ، كافل قضاة المسلمين ، وهادى دعاة المؤمنين » (٣) .

ولقد أخذ بدر الجمالى وقواته العسكرية فى إعادة الأمن إلى البلاد ، وضبط وحدثها الإقليمية ، والقضاء على جيوب المتغلبين الذين استقلوا ببعض الأجزاء ، وروى سيوفه بدماء خمسين ألف متمرّد من قبيلة لواته ، كما هزم طوائف الأعراب فى البوادي طائفة بعد طائفة (٤) .

غير أن هذا الأمن والاستقرار الذى بدأ على يديه ، إنما كان يؤرخ لبداية عصر جديد ، عصر سلطة الوزراء العسكريين وطغيان الأجناد ، وتقلص الخصائص التى تميزت بها الدولة الفاطمية ، حتى جاء الوقت الذى وجدنا فيه الأفضل بن بدر الجمالى الذى خلف أباه فى السلطة سنة ١٠٩٤م - (سنة ٤٨٧هـ) يغلق الأكاديمية العلمية التى بناها الحاكم بأمر الله (دار الحكمة) ، بحجة انحراف بعض المدارس فيها ، كما يتخلى عن المذهب الشيعى ، ويحرم « نزار » بن المستنصر حقه فى الخلافة ليضع مكانه « أخاه » المستعلى ، كى يكون طوع بنانه ، مما أفقد منصب الخلافة كل ما كان له من قبل من هبة وجلال . وحتى وجدناه يخلف لنا ثروة وجد فيها عندما قتل سنة ١١٢١م - (سنة ٥١٥هـ) ثلاثة ملايين من الجنيهات الذهبية ، وحتى قيل إن ثمن اللبن الذى كان يجلب من أبقاره الخاصة ، قد بلغ فى العام الواحد ٧٥٠, ١٥ جنيهاً (٥) .

(١) الجلد هنا ، هو الرسول عليه الصلاة والسلام ، والأب هو على بن أبى طالب ، الذى قلده الرسول السيف المسمى ذا الفقار .

(٢) السجلات المستنصرية : ص ١٠٨ .

(٣) المصدر السابق : ص ١٤٧ . (٤) المصدر السابق : ص ١٨٤ .

(٥) خطط المقرئى : ج ١ ، ص ٤٥٩ ، وسيرة القاهرة : ص ١٤٥ .

وإذا كان الأفضل قد قتل على يد « المأمون البطاحي » ، فلقد قتل المأمون على يد أحمد بن الأفضل ، الذي أعاد سيرة أبيه في تقليل الاهتمام بالمذهب الشيعي ، حتى لقد عين بعض القضاة السنيين مكان الشيعة ، بل وقطع الخطبة للخليفة من فوق المنابر وأحل اسمه محله !

وليت هذا الأمر قد ضمن للأمن للمواطنين . وليت هذه التطورات قد أبعدت شبح المجاعات والأزمات عن البلاد . إذن لكان هناك مقابل حصلت عليه مصر في نظير تقهقر حكم المنطق والعقل والحكمة أمام سلطان الوزراء المستبدين غير المستنيرين ، وسلطات الأجناد الذين سيطروا على كل شيء في البلاد . بل إن الأمر الذي جعل من هذه التطورات الداخلية في البلاد خسارة لا مكسب فيها ، وسلبًا لا إيجابيات فيه ، هو أن أشباح المجاعات والأزمات الغذائية ، قد ظلت تهدد البلاد من حين إلى حين ، وإن تكن في فترات محدودة ومؤقتة ، كما حدث في عهد الخليفة الأمر بأحكام الله (١١٠١ - ١١٣٠ م ، ٤٩٥ - ٥٢٤ هـ) ، زمن وزارة الأفضل ، وفي عهد الخليفة الحافظ لدين الله (١١٣٠ - ١١٤٩ م ٤٢٥ - ٥٤٤ هـ) ، زمن وزارة الأفضل بن ولخشي ، وفي عهد الخليفة الفائز (١١٥٤ - ١١٦٠ م ، ٥٤٩ - ٥٥٥ هـ) حيث وصل سعر أردب القمح إلى خمسة دنانير .

وليت هذا الأمر قد ضمن الاحترام لمنصب الخلافة ، والأمن للخلفاء الذين مارسوا سلطاته ، ولكن الذي حدث هو أن الخلفاء قد أصبحوا أسرى جبروت الوزراء وقواتهم المسلحة . بل لقد أصبح أمر تولية هؤلاء الخلفاء والتخلص منهم محل نظر هؤلاء الوزراء . وعندما قتلت الإسماعيلية الباطنية الخليفة الأمر بأحكام الله ابن المستعلي ، في ٢ من ذي القعدة سنة ٥٢٤ هـ - (سنة ١١٣٠ م) ، تولى سلطات الخلافة من بعده غلام أرمني من غلبانه لمدة ثلاثة أيام^(١) حتى حضر الوزير أبو علي أحمد بن الأفضل بن بدر الجمالي ، فأقام الحافظ خليفة على البلاد بعد مضي أكثر من سبعين يومًا على قتل الخليفة الأمر !!

(١) البداية والنهاية : جـ ١٢ ، ص ٢٠٠ ، ٢٠١ . وسيرة القاهرة : ص ١٤٦ .

الخطر الصليبي

وإذا كانت المجاعات والأزمات الاقتصادية ، التي شهدتها مصر منذ الشدة المستنصرية العظمى ، قد أدت بالخلافة الفاطمية إلى أن تفقد مضمونها وحيويتها وشبابها على يد عهد الوزراء المستبدين ، وسيطرة الأجناد الغرباء عن الفكر والعقل والثقافة العربية ، مما جعلها تعيش شيخوخة طويلة ، استمرت نحو قرن من الزمان ، فإننا نجد بعد وفاة الخليفة المستنصر في سنة ١٠٩٤م بعدة شهور ، البابا « أربانوس » يعقد مؤتمرًا كنسيًا في مدينة « كلرمونت » بالجنوب الشرقي لفرنسا ، ويلقى به في ٢٦ من نوفمبر سنة ١٠٩٥م أول خطاب يدعو الغرب المسيحي إلى شن الحروب الصليبية على الشرق العربي المسلم^(١) ، وهي الحروب التي عاشت البلاد العربية الإسلامية أحداثها الجسام والطوال والدامية نحو قرنين من الزمان (١٠٩٧ - ١٢٩١م) ، والتي كانت بمثابة الخطر الداهم والغاشم الذي استفز واستنهض عناصر القوة المسلحة في العالم العربي ، وأسلم زمام الأمور فيه لرجال صناعتهم الجندية والحرب ، بدءوا يواجهون حملات أوروبا السبع الشهيرة ، وغزوات الدويلات اللاتينية التي أقامتها هذه الحملات في المشرق العربي والشمال العربي ، بادئين بدولة صغيرة في « الموصل » أقامها « عماد الدين زنكي سنة ١١٢٧م ، ومن بعده « نور الدين » (سنة ١١٤٦م) ، الذي اتخذ من « حلب » قاعدة لتقدمه تجاه الصليبيين ، حتى إذا مد نفوذ دولته إلى مصر بواسطة جيش « الغز » والأتراك الذي قاده « أسد الدين شيركوه » و « صلاح الدين الأيوبي » في سنة ١١٦٩م - (٥٦٤هـ) ودانت لجيشه مصر كاملة بعد وفاة الخليفة الفاطمي العاضد سنة ١١٧١م - (سنة ٥٦٧هـ) ، أصبحت جميع أنحاء بلاد العرب المسلمين تقريبًا تحت سلطان القادة العسكريين ورهن إشارة الجيوش الجرارة التي وضعت كل الإمكانيات تحت تصرفها كي تتمكن من مواجهة أخطار الصليبيين ، ومواجهة مهام إحراز الانتصار على إماراتهم التي أقاموها في بلاد الشام ، وحملاتهم

(١) تاريخ العرب : ج ٣ ، ص ٧٥٢ .

التي وجهوها مباشرة إلى مصر باعتبارها القلب الذي لا بد من إسكاته ، حتى تستسلم لهم القدس والشام .

فإذا كانت أخطار المجاعات الداخلية في مصر ، قد أفقدت الخلافة الفاطمية والنظام الفاطمي مضمونه الحقيقي ، وأبقت على الشكل قرابة القرن من الزمان ، فإن الخطر الصليبي الخارجى الذى تحول - بعد قيام الإمارات اللاتينية في الشام ، والغزو الذى حاولته لاحتلال مصر - إلى خطر داخلى ، بالنسبة للعالم العربى كله ، قد أفقد هذه الخلافة الفاطمية ، ما تبقى لها من مظاهر وشكليات . وكما استدعى الخليفة المستنصر القائد العسكرى الأرمنى بدر الجمالى ، ليقبض على أزمة الأمور في سنة ١٠٧٥م ، فلقد استدعى الخليفة الشيعى الفاطمى العاضد جيش نور الدين السنى السلفى - الذى « كان قد أذل الشيعة بحلب ، وأبطل شعارهم ، وقوى أهل السنة »^(١) لينقذ مصر من الصليبيين .

وكما وصف المستنصر بدر الجمالى في مرسوم توليته الوزارة بأنه : « السيد ، الأجل ، الأفضل ، أمير الجيوش ، سيف الإسلام ، ناصر الإمام ، كافل قضية المسلمين وهادى دعاة المؤمنين »^(٢) نجد العاضد يصف أسد الدين شيركوه في مرسوم توليته الوزارة بأنه : « السيد الأجل ، الملك المنصور ، سلطان الجيوش ، ولى الأئمة ، مجير الأمة ، أسد الدين ، كافل قضية المسلمين وهادى دعاة المؤمنين ! »^(٣) . فأمام الأخطار الداهمة ، تراجعت الخلافات المذهبية ، والفكر والاعتقادات ، ولم يعد هناك صوت ولا سلطان سوى صوت الحرب وسلطان الجيوش . ومن ثم ، فإننا لا نغالى إذا قلنا : إن الجولة التى بدأها ضد مضمون الحكم الفاطمى بدر الجمالى ومن جاء بعده من الوزراء ، هى نفس الجولة التى ختمها

(١) كتاب الروضتين : ج ١ ، ص ٤٤١ .

(٢) السجلات المستنصرية : ص ١٤٧ .

(٣) كتاب الروضتين : ج ١ ، ص ٤٠٢ .

وانتهى بها إلى نهايتها الطبيعية أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين الأيوبي فيما بين سنتي ١١٦٩ م ، ١١٧١ م .

أما كيف انتهى الخطر الصليبي بالأحداث التي بدأها بدر الجمالي زمن المستنصر إلى ما صنعه صلاح الدين الأيوبي بالعاضد والخلافة الفاطمية عمومًا ، فذلك ما نستطيع تتبع خيوطه إذا نحن وعينا دلالة هذه الأحداث التي نجملها في هذه النقاط :

● كانت الحملة الصليبية الأولى (١٠٩٧ - ١٠٩٩ م) قد صادفت في المشرق العربي الضعف العباسي والسلجوقي والفاطمي ، مما جعلها تحقق انتصارات مذهلة ، وتبنى لها مراكز وقواعد هامة في هذه البلاد .

فلقد طوقت العالم العربي من الشمال ، وأقامت «كونتية الرها» شمالي العراق وسوريا في سنة ١٠٩٨ م ، تحت حكم الأمير الإقطاعي «بلدوين» ابن كونت بولونيا .

وفي نفس العام (سنة ١٠٩٨ م) استطاع الصليبيون أن يقيموا لهم في الشمال الغربي لسوريا قاعدة جديدة تحت اسم «مقاطعة أنطاكية» يحكمها الأمير الإقطاعي «بوهمند» .

وفي سنة ١٠٩٩ م ، استطاع الصليبيون إقامة «مملكة القدس» ، التي وصلت حدودها من خليج العقبة على البحر الأحمر إلى الساحل الفلسطيني على البحر الأبيض ، بما في ذلك ميناء بيروت ، وحاذت نهر الأردن من ناحية الشرق ، والتي تشبه خريطتها من الناحية الإستراتيجية ، خريطة دولة «إسرائيل» إلى حد كبير ، وحكم هذه المملكة الملك «جودفري» ، الذي لقب «ببارون القبر المقدس وحاميه» .

وفي سنة ١١٠٩ م ، استطاع الصليبيون أن يخضعوا عددًا آخر من المدن الساحلية العربية ، وأن يقيموا «كونتية طرابلس» التي حارب في سبيل تكوينها الأمير الإقطاعي «ريموند»^(١) .

(١) تاريخ العرب : ج٣ ، ص ٧٥٤ - ٧٦١ .

ولقد ظلت شوكة الإمارات الصليبية قوية طوال النصف الأول من القرن الثانى عشر الميلادى ، وحتى بعد أن قامت دولة « الأتابكة » فى الموصل على يد عماد الدين زنكى سنة ١١٢٧ م ، الذى استطاع أن يحرر شمالى العراق والشمال الشرقى لسوريا من حكم الصليبيين ، عندما أسقط « كونتية الرها » سنة ١١٤٤ م. وحتى بعد أن تولى نور الدين مكان عماد الدين سنة ١١٤٦ م ، وتقدم بمقر عاصمته غرباً إلى حلب تمهيداً لدخول المعارك الفاصلة لتحرير الأرض العربية الإسلامية ، وبعد أن دخلت إمارة دمشق العربية طوعاً فى دولته سنة ١١٥٤ م ، حتى بعد هذه التطورات التى كانت تمثل مدأً عربياً إسلامياً ، ويقظة أذكت الأخطار الصليبية الاستعمارية مشاعرها ، فإن ميزان القوى بين العرب المسلمين وبين الصليبيين اللاتين لم يكن يسمح لنور الدين بأن يبدأ الزحف الشامل لتحرير كل الأرض ، كما لم يكن يسمح للصليبيين بالاطمئنان إلى أن مقامهم فى هذه الأرض سيكون دائماً ومستقرًا دون أن يجرفهم التيار. ذلك ، أن العامل الذى كان لا بد من تحقيقه كى يحسم هذا التناقض ويستقطب هذا التوازن إلى صالح العرب المسلمين ، كان هو انضمام مصر إلى دولة نور الدين ، وبذلك يطوق الصليبيون من الشرق والشمال ومن الغرب والجنوب ، فيتحدد لهم المصير المحتوم ، وهو العودة إلى أوروبا عن نفس الطريق الذى جاءوا منه : مياه البحر المتوسط !!

ولم تكن مصر تعنى فى هذه العملية إمكانياتها الكبرى وحدها ، بل لقد كانت تمثل الطريق لمساعدات أدبية ومادية يمكن أن تأتى من المغرب ، الذى كانت تحكمه إذ ذاك دولة « الموحدين » ، وهى الدولة التى كانت شديدة الحساسية لإزالة الحكم الصليبي فى المشرق العربى ، لأن كيانات الصليبيين وانتصاراتهم هذه كانت تشد أزر المسيحيين أعداء « الموحدين » فى شمالى بلاد الأندلس .

ومن هنا ، كان الصراع الميرى ، البارد حيناً والساخن حيناً آخر ، بين الصليبيين وبين نور الدين على امتلاك مصر ، وأحياناً كانت تراود الصليبيين أحلام امتلاكها ، وأحياناً تتواضع هذه الأحلام لتقف عند حدود التحالف مع النظام الفاطمى المتهالك فيها وفرض الإتاوات المالية عليها ، وأحياناً أخرى كانت

تتواضع هذه الأحلام درجة ثالثة ، لتقف عند حدود التمنى لأن تبقى مصر بمعزل عن أيدي نور الدين ، حتى ولو لم تخضع خضوعاً مباشراً أو غير مباشر لهم ، شريطة أن تظل أمورها فوضى ، حتى لا تستيقظ اليقظة التي تجعلها تمد يدها وإمكاناتها ، تلقائياً ، لأشقاء المشرق في المعركة المشتركة ضد الصليبيين .

● وعندما توارت هيبة الخلافة الفاطمية ، وفقدت مضمونها على يد بدر الجمالي في سنة ١٠٧٥ م ، وتولى مكانه ابنه الأفضل سنة ١٠٩٤ م - (سنة ٤٨٧ هـ) ، ليقته المأمون البطائحي في سنة ٥١٥ هـ - (سنة ١١٢١ م) ، ثم ليعود ابنه أحمد ابن الأفضل ليأثر لأبيه بقتل المأمون البطائحي وتولى الوزارة ، ثم ليأتى الخليفة الحافظ المغلوب على أمره ليقته أحمد بن الأفضل ، ويولى الوزارة مكانه الوزير الأرمني المسيحي بهرام ، فيدور الصراع بين بهرام هذا وبين رضوان بن الوحشى ، لينتهى هذا الصراع بمقتل رضوان وتحول بهرام من وزير إلى مجرد مستشار في قصر الخليفة ، وذلك ليعود الصراع على الوزارة مرة أخرى في عهد الخليفة الظافر (١١٤٩ - ١١٥٤ م ، ٥٤٤ - ٥٤٩ هـ) بين كل من ابن السلام وابن مصال !!

ولما كانت فترة الصراع بين ابن السلام وابن مصال على الوزارة ، هي الفترة التي أخذ فيها نجم « الدولة النورية » في المشرق في العلو والارتفاع ، فلقد نبثت في هذه المرحلة فكرة الاستعانة بنور الدين وجيشه ونفوذه في هذه الصراعات . ومن ثم ، استيقظت أكثر فأكثر عيون الصليبيين لمصر ولما لها من إمكانيات ، وما تمثله من أخطار إذا هي أضحت امتداداً لدولة نور الدين في الغرب والجنوب .

ولقد انتهت النزاع المسلح بين ابن السلام وابن مصال بمقتل الأول ، ثم لحقه الثاني بعد قليل ، بل لقد لحقها الخليفة مقتولاً هو الآخر على يد رابع ، عاد فقتل هو وأولاده بعد قليل !!

ثم تسلم الوزارة وزير لقب نفسه « بالملك الصالح » ، هو طلائع بن رزيك ، الذي عين الخليفة العاضد سنة ١١٦٠ م - (سنة ٥٥٥ هـ) بعد أن مات الفائز ، ليعود العاضد فيقتله ، ويولى الوزارة بدلاً منه ابنه العادل ، الذي خلعه ، ثم قتله

أمير الصعيد «شاور» الذي تولى الوزارة ليدخل حلقة جديدة ، ولكنها أخيرة ، من الصراع ضد « ضرغام » ، وليدخل جيش نور الدين إلى مصر في عهدهما ثلاث مرات ، كانت :

أولها : ١١٦٣ م - (٥٥٩ هـ) استجابة لطلب « شاور » في صراعه ضد « ضرغام » الذي استعان بالصلبيين . وبعد قتال دار بين الجيشين ، عادا إلى فكرة التوازن ، واتفقا معًا على إخلاء البلاد . وفي هذه الحملة ، قتل أحد جنود الشام « ضرغام » الذي هام على وجهه بعد هزيمته ، فخرج « من باب زويلة ، والعامه تلعنه وتصيح عليه » ، كما قتل ابنه على يد « شاور »^(١) .

وثانيتهما : ١١٦٦ م - (٥٦٢ هـ) لمقاومة الصليبيين الذين حضروا هذه المرة بدعوة من « شاور » ، الذي خاف نور الدين ، بعد أن نقض ما تعهد له به من مال في الحملة الأولى . وبعد قتال دار بين الجيشين ، عادا ثانية إلى فكرة التوازن ، واتفقا على الانسحاب من البلاد . ولكن شاور استطاع هذه المرة أن يرغم السلطان العاضد على أن يكون للصلبيين فرسان يقيمون على أبواب القاهرة ، « والمفاتيح معهم » ! وأن تدفع البلاد جزية لهم !

وثالثتها : ١١٦٨ م - (٥٦٤ هـ) ، وكانت مناسبتها هذه المرة ، أن اللعبة الخطرة التي أخذ وزراء البلاط الفاطمي وقواده يهارسونها ، قد جعلت بعض المنافسين لشاور من أمثال « يحيى بن الخياط » و « ابن قرجلة » يتفقون مع الصليبيين على غزو البلاد . وحاول شاور الاستمرار والمضى في ذات اللعبة ، فصالح الصليبيين على أن يدفع لهم ١٠٠٠ ، ١٠٠٠ ، ١٠٠٠ دينار مصرية في نظير رجوع جيشهم ، وذلك « بعد أن أخبرهم أن هواه مع التسليم لهم ، ولا يمنعه من ذلك إلا الخوف من نور الدين ، والعاضد ، وعدم موافقة المسلمين » . وكان يسميهم « الفرج » ، لا « الفرنج » !!

(١) كتاب الروضتين : ج ١ ، ص ٤٢٠ .

ولكن العاضد بعث برسالة سرية إلى نور الدين يستدعى جيشه ، وجعل داخل أوراق الرسالة « خصلات » من شعور أميرات البيت الفاطمي ، وكتب فيها : « هذه شعور نسائي من قصرى يستغنن بك لتنفذهن من الفرنج » . كما تعهد له بأن يكون له ثلث بلاد مصر ، وذلك غير إقطاعات جيش أسد الدين شيركوه الذى طلب إقامته الدائمة فى البلاد .

وعندما وصل جيش نور الدين بقيادة أسد الدين شيركوه ، وصحبه ابن أخيه صلاح الدين الأيوبي ، وهزم الصليبيين ، ووصل القاهرة فى ٤ من ربيع الآخر سنة ٥٦٤ هـ - (سنة ١١٦٨ م) ، أراد شاور أن يدبر مؤامرة لاغتيال أسد الدين ، فهناه عن ذلك ابنه الكامل ، ثم عجل صلاح الدين باغتيال شاور فى ١٧ من ربيع الآخر سنة ٥٦٤ هـ ، فتولى الوزارة بدلاً منه أسد الدين شيركوه ، الذى خلع عليه العاضد ، ولقبه « بالملك المنصور أمير الجيوش » . وأصدر لتولية الوزارة منشوراً قرىء على منابر المساجد ، جاء فيه : « من عبد الله ووليه أبى محمد ، العاضد لدين الله ، أمير المؤمنين ، إلى السيد الأجل ، الملك المنصور ، سلطان الجيوش ، ولى الأئمة ، مجير الأمة ، أسد الدين ، كافل قضاة المسلمين ، وهادى دعاة المؤمنين ، أبى الحارث شيركوه العاضدى . عضد الله به الدين ، وأمتع بطول بقائه أمير المؤمنين ، وأدام قدرته وأعلى كلمته . . هذا عهد لا عهد لوزير بمثله ، وتقلد أمانة رآك أمير المؤمنين أهلاً لحمله ، والحجة عليك عند الله بها أوضح لك من مرأشد سبله ، فخذ كتاب أمير المؤمنين بقوة ، واسحب ذيل الفخار بأن اعترت (انتسبت) خدمتك إلى بنوة النبوة ، واتخذة للفوز سبيلاً . ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً » (١) .

واستدعى أسد الدين القاضى الفاضل ، ليتولى له شئون ديوان المكاتبات والإنشاء ، وأقطع بلاد مصر للجنود الذين قدموا معه (٢) . وتنفست البلاد الصعداء

(١) كتاب الروضتين : ج ١ ، ص ٣٨٩ - ٤٠٣ .

(٢) المصدر السابق : ج ١ ، ص ٤٠٢ .

بزوال الخطر الصليبي عنها ، وبإنقاذها من فوضى الصراعات التي كانت لا تنتهى ولا تمهدأ على المناصب والوزارات . ومدح الشعراء الوزير الجديد ، وصبوا لعنايتهم على الوزير المقتول ، وقال الشاعر العرقلة « أبو الندى حسان بن نمير الكلبى » (٤٨٦ - ٥٦٧ هـ) فى أسد الدين :

هو الأسد الضَّارَى الذى جَلَّ خطبُهُ و « شاورُ » كلبٌ للرَّجالِ عقورُ
بنى وطنى ، حتَّى لقد قال قائلُ على مثلها كان اللعينُ يدورُ (١)

● وفى الوقت الذى كان العاضد يظن ويحسب أن أسد الدين وجيشه لن يكونا بالنسبة للخلافة الفاطمية الشيعية أكثر مما كان بدر الجمالى وجيشه ، وأن مظاهر الخلافة وشكلياتها وخاصة أشخاص خلفائها ، ستظل على الأقل دون تغيير ، فى ذلك الوقت كان رأى العام فى الشام ، الذى جهز لأسد الدين هذا الجيش ، يطلب إليه تغيير أوضاع مصر تغييراً جذرياً ، وإزالة الخلافة الفاطمية ، وتوحيد مصر والشام توحيداً عضوياً ، لأن المعركة الملحة ضد الصليبيين تقتضى ذلك ، ولا تحتمل البطء فيه ، بل وباعتبار هذه المعركة هى التى أملت ذهاب هذا الجيش إلى هذه البلاد . وعن كل ذلك يعبر الشاعر عماد الدين الكاتب فى تهنتته لأسد الدين ، عندما يقول :

فتحت مصر وأرجو أن تصير بها ميسرا فتح بيت القدس عن كئيب
رد الخلافة عباسية ودع الدعى فيها يصادف شر منقلب
لا تقطعن ذنب الأفعى وترسله فالحزم عندى قطع الرأس كالذنب (٢)

● وبعد وزارة دامت شهرين وخمسة أيام ، توفى أسد الدين شيركوه فى ٢٢ من جمادى الآخرة سنة ٥٦٤ هـ ، بسبب كثرة الأكل ، وشدة « المواظبة على تناول

(١) المصدر السابق : ج ١ ، ص ٣٩٩ .

(٢) المصدر السابق : ج ١ ، ص ٤٠٣ ، ٤٠٤ .

اللحوم الغليظة » ، مما أدى إلى أن « اعتراه خانوق عظيم ، فقتله ، رحمه الله » (١) !! فتولى الوزارة بعده صلاح الدين الأيوبي (١١٣٧ - ١١٩٣ م ، ٥٣٢ - ٥٨٩ هـ) في ٢٥ من جمادى الآخرة سنة ٥٦٤ هـ ، وخلع عليه الخليفة العاضد خلعة الوزارة ، وكانت « عمامة بيضاء تنسب بطراز ذهب ، وثوب ديبقى بطراز ذهب ، وجبة تحتها سقلاطون بطراز ذهب ، وطيلسان بطراز دقيق ذهب ، وعقد جوهر قيمته عشرة آلاف دينار ، وسيف محلى بجوهر قيمته خمسة آلاف دينار ، وفرس حجر - (أنثى) - صفراء من مراكب العاضد قيمتها ثمانية آلاف دينار لم يكن بالديار المصرية أسبق منها ، وطوق ، ونخت ، وسرفسار ذهب مجوهر ، وفي رقبة الحجر مشددة بيضاء وفي رأسها مائتا حبة جوهر ، وفي أربع قوائم الفرس أربع عقود جوهر ، وقصبة ذهب في رأسها طالعة مجوهرة وفي رأسها مشددة بيضاء بأعلام ذهب . ومع الخلعة عدة بقج ، وعدة من الخيل ، وأشياء أحر ، ومنشور الوزارة ملفوف في ثوب أطلس أبيض » (٢) !!

وظلت أصوات دمشق والشام تلح على صلاح الدين - كما ألحت من قبل على أسد الدين شيركوه - أن يزيل من مصر خلافة الفاطميين ، ولكن صلاح الدين قد أثر التريث حتى يعلم موضع قدميه وأقدام جيشه في هذه البلاد ، لأنه كان يشعر بشيء من الخطر الذي يخشاه من جانب النظام الفاطمي . وعلى حد تعبيره ، فإن جنوده « وإن ملكوا ، ونالوا مقاصدهم وأدركوا » ، فإنهم يعيشون « بين أمة لا يعرفونها ، بل ينكرونها ولا يألّفونها » ، وأنهم حينما ذهبوا يرون « وجوهاً هناك بهم عابسة ، وأعيناً للمكائد متيقظة ، وعن الود ناعسة ا » (٣) .

وذلك ، لأن المجتمع المصرى العربى قد كان ينظر إلى هؤلاء الجنود « الغز والأتراك » نظرة المنقذ من خطر الفرنج ، ولكنه لم يكن يستطيع أن يجد بعد جسورًا

(١) المصدر السابق : ج ١ ، ص ٤٠٥ ، ٤٠٦ .

(٢) المصدر السابق : ج ١ ، ص ٤٣٩ .

(٣) المصدر السابق : ج ١ ، ص ٤١٠ .

حضارية عميقة وسهلة تصل حياته بحياتهم ، ولا أن ينسى أن أرضه قد أصبحت لهم إقطاعات . ولقد كان الكثيرون من جنود جيش صلاح الدين وقادته يدركون ذلك ، ونحن نجد لبعضهم عبارات ذات دلالة بالغة الأهمية في هذا الصدد ، عندما قالوا لأسد الدين شيركوه أثناء مجيئهم في المرة الثانية إلى مصر سنة ١١٦٦م - (سنة ٥٦٢ هـ) : « كل من في هذه الديار من جندي وعامى وفلاح عدو لنا ، ويودون لو شربوا دماءنا » (١) .

ولم يكن سوى الخطر الصليبي الداهم والغاشم هو الذي أوجد الأرضية المشتركة بين المجتمع المصري العربي المتقدم نسبيًا ، وبين هؤلاء الأجناد « الغز والأترك » الذين لم تكن توجد ، حتى هذه الفترة ، لغة حضارية مشتركة بينهم وبين المصريين ، لأنهم لم يكونوا أهل حضارة ولا تقدم ولا شيء لديهم من هذا القبيل .

غير أن صلاح الدين الأيوبي ، قد أخذ في التمهيد التدريجي لإزالة حكم الفاطميين نهائيًا من البلاد ، لا على أن تتبع دولة نور الدين بالشام ، وإنما على أن يستقل هو بها ، كخطوة نحو أن تتبعه وتتبعها دولة نور الدين التي بالشام ١١

وعندما انتصر على الأسطول الصليبي الذي جاء لاحتلال البلاد ، والذي نزل في دمياط أول شهر صفر سنة ٥٦٥ هـ - (سنة ١١٦٩م) (٢) ، فأقام بمياهاها خمسين يوماً ، كان يقترب بذلك الانتصار من قلوب المجتمع المصري ، بقدر اقتراب الخطر الصليبي من هذا المجتمع .

وعندما أخذ في سنة ٥٦٦ هـ - (سنة ١١٧٠م) يقيم المدارس السننية السلفية ، بادئاً بمدرسة للشافعية في أول العام ، وبأخرى للمالكية في منتصف شهر المحرم ،

(١) كتاب الروضتين : ج ١ ، ص ٣٦٤ .

(٢) المصدر السابق : ج ١ ، ص ٤٥٧ .

وبثالثة للشافعية كذلك في منتصف شهر شعبان^(١) وهكذا دواليك ، كان يضع الأرضية الفكرية التي سيقوم عليها هذا التغيير.

وعندما عزل في العام نفسه « قضاة مصر لأنهم كانوا شيعة ، وولى قضاء القضاة لها لصدر الدين عبد الملك بن درباس المارداني الشافعي فاستتاب في سائر المعاملات قضاة شافعية »^(٢) ، كان يضمن إلى جانبه سلطات وأجهزة ضخمة تعينه على إجراء هذا التغيير .

وبعد ذلك ، استطاع صلاح الدين أن يقيم الخطبة للخليفة العباسي ، بدلاً من العاضد ، في الإسكندرية أولاً ، ثم في القسطنطينية ، ثم بعد ذلك في القاهرة ، قبل أسبوع من وفاة العاضد ، الذي قيل إنه امتص سماً كان قد وضعه تحت فص خاتمه ، عندما علم بقطع الخطبة له ، وكان يومئذ مريضاً ملازماً لفراشه ، فمات في يوم عاشوراء سنة ٥٦٧ هـ (سنة ١١٧١ م)^(٣) . وبموته هذا ، انتهت خلافة الفاطميين ، التي دامت في مصر أكثر من قرنين من الزمان ، قضت أحدهما قوية عزيزة ذات حضارة ضربت جذورها في أعماق المجتمع ، الذي كان قد أصبح يومئذ مجتمعاً عربياً كامل التعريب ، وقضت الأخر ضعيفة الجانب . حتى جاءت سلطة صلاح الدين الأيوبي ودولته الجديدة الشابة ، كى تبدأ معها وبها صفحة من النضال ضد الغزاة الصليبيين ، برغم اختلاف المضمون الفكري والفلسفي الذي ميز ما بين خلافة الفاطميين وسلطنة الأيوبيين . ولتكتب في تاريخ نضالها صفحات من البطولة ، لعلها أروع ما حفل به هذا التاريخ من صفحات في تلك العصور .

(١) المصدر السابق : ج ١ ، ص ٤٨٦ .

(٢) البداية والنهاية : ج ١٢ ، ص ٢٦٣ .

(٣) كتاب الروضتين : ج ٢ ، ص ٤٩٢ ، ٤٩٩ ، ٥٠٤ .

الفصل العاشر

سنة الأيوبيين تحوآثار الفاطميين

- دراسة للعقبات التي اعترضت صلاح الدين الأيوبي في جهوده الرامية كى يعيد النظام والدولة السننية إلى مصر الشيعية . . وكيف تم له ذلك . . والأسلحة الفكرية ، والنشاط العسكرى الذى استخدمه .

أشواك على طريق صلاح الدين

وإذا كانت الأخطار الخارجية التي كانت تتهدد مصر والقاهرة ، مضافاً إليها فوضى الاضطرابات الداخلية التي عاشتها البلاد تحت حكم الفاطميين الأخير ، قد جعلت الإنسان المصرى - وهو الذى أجبر طويلاً وكثيراً على أن يقف الموقف السلبي إزاء أحداث السياسة في عاصمة بلاده - قد جعلته يفتح قلبه ويمنح عاطفته لذلك القائد الجديد ، صلاح الدين الأيوبي ، فإن بقايا الجنود الفاطمية ، وكل الفئات التي كانت تنتفع من بقاء هذه الخلافة التي غربت شمسها ، ما كان لها أن تستسلم لهذا المصير الذى صنعه بها وبمصالحها المادية والأدبية صلاح الدين . ومن هنا ، كان لابد من صراعات يخوضها النظام الأيوبي ضد بقايا النظام الفاطمي ، وكان لابد لمصر أن تشهد عدة فصول من هذا الصراع .

●فصلاح الدين الأيوبي ، الذى لم يكن يشق بجند الخليفة العاضد ، ولا يطمئن إليهم ، والذى كان يتحدث عنهم فيقول : « إن أجناد مصر كانوا في الدين (يقصد المذهب) مخالفين ، وعلى عقيدتهم مخالفين » (١) ، قد بدأ صراعه مع هؤلاء الجند وقادتهم حتى قبل وفاة الخليفة العاضد ، وذلك عندما أبطل إقطاعهم ، ليحل محلهم فيها جنود جيشه ، مما جعل قائد الجند السودانيين في بلاط العاضد ، والمسماى « مؤتمن الخلافة » يدير مؤامرة للتخلص من صلاح الدين ، فكتب رسالة سرية بعث بها إلى الصليبيين يستدعيهم لمصر ، ولكن صلاح الدين ضبط الرسالة والرسول ، فقتل « مؤتمن الخلافة » في ٢٥ من ذى القعدة سنة ٥٦٤ هـ (سنة

(١) كتاب الروضتين : ج ١ ، ص ٤١٠ .

١١٦٨م) ، فانفجرت ثورة جنوده السودان ، وكان تعدادهم خمسين ألف جندي ، يسكنون حيا خاصاً بهم عند باب زويلة يسمى « المنصورة » ، فأرسل إليهم صلاح الدين بعض فرق جيشه بقيادة أخيه « شمس الدولة » ، الذي هزمهم في ٢٨ من ذي القعدة سنة ٥٦٤ هـ . ولم يكن بوسع الخليفة العاضد إلا أن يؤيد صلاح الدين في هذا ، وأن يتحدث إلى شمس الدولة فيقول له : « أمير المؤمنين يسلم على شمس الدولة ويقول : « دونكم والعييد الكلاب ، أخرجوهم من بلادكم ا » (١) .

وعندما هزم الجند السودان ، فر من نجا منهم من القتل إلى أطراف الصعيد ، وهدم صلاح الدين منازلهم ، وحرثها ، وحوّل مكانها إلى منتزه ا وأنشد عماد الدين الكاتب لصلاح الدين ، في هذه المعركة قصيدة قال فيها :

مؤمّن القوم خان حتى غالته من شره غوائل (٢)

● ثم حدث أن تمرد رجل يدعى عباس بن شادى ، الذى زحف بأنصاره من بلدة « طود » إلى مدينة « قوص » ، وهناك أعلن ترمده وعصيانه ضد الدولة الجديدة . فأرسل إليه صلاح الدين الجنود التى هزمته وكسرت شوكة أنصاره (٣) .

● ثم حدثت أحداث تلك المؤامرة وذلك التمرد الذى ارتبط فى تاريخ هذه الفترة باسم الشاعر الكبير عمارة اليمنى ، الذى قبض عليه هو وشركاؤه فى يوم السبت ٢ من رمضان سنة ٥٦٩ هـ - (سنة ١١٧٣ م) .

والحقيقة ، أن حديث هذا الشاعر وهذه المؤامرة ضد حكم صلاح الدين ، إنما يصور تصويراً دقيقاً موقف تلك الفئة من بقايا الحكم الفاطمى ، الذين كانوا يعيشون على عطايا الفاطميين وهباتهم وإقطاعاتهم ، والمصير الذى واجههم بالفقر والفاقة وعدم الثقة من جانب السلطان الجديد .

(١) المصدر السابق : ج ١ ، ص ٤٥٠ - ٤٥٢ .

(٢) المصدر السابق : ج ١ ، ص ٤٥٣ .

(٣) المصدر السابق : ج ١ ، ص ٦٠١ ، ٦٠٢ .

وإذا كانت مجموعة كبيرة من الذين صلبوا مع عمارة في هذه المؤامرة ، هم بالتأكيد ذوى ميول شيعية أو متشيعين تماماً ، لا يرتاحون للسلطة السلفية والفكرية السنية التى سودها صلاح الدين ، مثل قاضى قضاة الفاطميين أبى القاسم هبة الله بن عبد الله بن كامل ، ومثل عبد القوى ، داعى الدعاة ، ومثل العويرس ، ناظر الديوان ، ومثل شبريا ، كاتب السر ، ومثل عبد الصمد ، الكاتب ، ونجاح الحامى ^(١) ومثل عبد الصمد القشة ، أحد الأمراء الفاطميين ، فإننا لا نعتقد أنهم قد ثاروا وتآمروا لأسباب فكرية وعقائدية بحتة ، وإلا لما كان تأمرهم مع الصليبيين وحسابهم ، ولقاءاتهم مع « جورج » رسول « الفرنج » الذى كان يحضر إلى القاهرة وظاهر أمره أنه فى مهام من قبل الصليبيين إلى صلاح الدين ، وباطن أمره اللقاء والاتفاق مع المتآمرين ، وإلا لما اعترف المتآمرون أنفسهم بعد القبض عليهم « واعتذروا بكونهم قطعت أرزاقهم وأخذت أموالهم » ^(٢) .

وأكثر من ذلك ، فإن عمارة اليمنى هذا لم يكن شيعياً ، وإنما كان فقيهاً شافعيًا ، مذهبه السلفى هو نفس مذهب صلاح الدين ، ولكنه كان شاعر القصر الفاطمى ، وهو يصور علاقته بهذا البلاط فى أشعار كثيرة ، منها تلك القصيدة التى يصف فيها حالته وموقفه بين الفاطميين وبين صلاح الدين ، فيقول :

تيممتُ مصرًا أطلب الجاه والغنى	فإنلتها فى ظلِّ عيشٍ ممنوع
ملوكٌ دعوا إلى حُرمةٍ صار نبتُها	هشياً رعته النائباتُ وما رُعى
مذاهبهم فى الجودِ مذهبُ سُنَّةِ	وإنْ خالفونى فى اعتقادِ الشَّيْخِ ا

ثم يمضى ليصور المصير الذى انتهت حالته إليه ، فيقول :

(١) البداية والنهاية : ج ١٢ ، ص ٢٧٥ .

(٢) كتاب الروضتين : ج ١ ، ص ٥٦١ ، ٥٦٤ .

فَقُلْ لصلاح الدين ، والعدلُ شأنه : مَنْ الحاكِمُ المُضغى لى فأسدعى ؟
أفمئْتُ لكم ضيفًا ثلاثة أشهرٍ
فيا راعى الإسلام كيف تَرَكْتُنَا
أقولُ لصدري كَلِمًا ضاق : وسَّع
فريقى ضياع : من عرايا ، وجوَّع (١) ١٢

فهى إذن الأموال والإقطاعات والأرزاق التى حركت هؤلاء الذين خرجوا على صلاح الدين . ولذلك ، فإنهم عندما يكاتبون الصليبيين يحددون فى رسائلهم الطوائف والفتنات التى ستقف ضد صلاح الدين ، وهم : حاشية القصر ، وجميع الجنود السابقين ، وطائفة السودان ، وجموع الأرمن ، وجميع الإسماعيلية (الشيعة) (٢) .

ويبدو أن معظم هذه الفتنات ، ونموذج لها عمارة اليمنى ، قد حاولت أن تصل جبال حياتها بالنظام الجديد ، وأن تربط عجلتها ببيت ماله وإقطاعاته ، ولكن صلاح الدين وجنده ، « الذين ذاقوا حلاوة ملك الديار المصرية ، وخافوا على فوت ذلك منهم » (٣) ، لم يكونوا على استعداد لشيء من هذا القبيل . فلقد مدح عمارة اليمنى كلاً من صلاح الدين الأيوبى ، ووالده نجم الدين ، وطالما أشاد بإنقاذهما مصر من الفوضى ومن الصليبيين . بل لقد قال الكثير من الشعر الرائع فى مدح انتصارات صلاح الدين على الأسطول الصليبي ، الذى غزاد مياط فى سنة ٥٦٥ هـ - (سنة ١١٦٩ م) . ونحن نجده يحث صلاح الدين على غزو بيت المقدس ، بعد أن تمكن من فتح أحد حصون الفرنج فى فلسطين ، فيقول له :

(١) المصدر السابق : ج ١ ، ص ٥٦٨ .

(٢) المصدر السابق : ج ١ ، ص ٥٦٤ .

(٣) المصدر السابق : ج ١ ، ص ٦٠٠ .

وَهَيَّجْتَ لِلْبَيْتِ الْمُقَدَّسِ لَوْعَةً يطوُلُ بها منه إِلَيْكَ التَّشَوُّقُ
وَعَزُّوكَ هَذَا سُلِّمَ نَحْوَ فَتْحِهِ قَرِيْبًا ، وَإِلَّا رَائِدٌ وَمَطْرَقُ
هُوَ الْبَيْتُ ، إِنْ تَفْتَحَهُ ، وَاللَّهُ فَاعِلٌ فَمَا بَعْدَهُ بَابٌ مِنَ الشَّامِ مُغْلَقٌ (١)

فاللإذن ، والإقطاعات المملغة ، هي التي دفعته ، كما دفعت زملاءه إلى هذا الموقف المخزي ، الذي مدوا فيه أيديهم للتحالف مع « الفرنج » ضد صلاح الدين .

كما أن هذا الشاعر قد ساءت له أفعال صلاح الدين بسكان القصر الفاطمي ، وحالة البؤس والمذلة التي وصل إليها أولئك الذين بقوا من نسلهم ، وكيف عزلت نساؤهم عن رجالهم لينقطع هذا النسل ! فصور ذلك في القصيدة التي كانت من مبررات إعدامه ، عندما قال :

وما عسى كانت الإفرنج فاعلةً في نسـل آل أمير المؤمنين على ؟
هل كان في الأمر شيء غير قسمة ما ملكتموا بين حُكْمِ السبي والنقل (٢)

ولقد صور أبو شامة حال عمارة اليمنى هذا أيام صلاح الدين تصويراً دقيقاً ، عندما قال إنه « كان مستشعراً من « الغز » ، وهم أيضاً منه ، لأنه كان من أتباع الدولة المصرية - (الفاطمية) - ومن انتفع بها واختل أمره بعدها ، فلم تصف القلوب بعضها لبعض . وصار يظهر في فلتات لسانه ، في نظمه ونثره ، ما يقتضى التحرز منه وإبعاده ، وهو يرى ذلك منهم فيزداد فسادنية . . وقال في كتاب (الوزراء المصرية) (عن الفاطميين) : ذكر الله أيامهم بحمد لا يكل نشاطه . ولا يطوى بساطه ، فقد وجدت فقدهم ، وهنت بعدهم » (٣) .

(١) المصدر السابق : ج ١ ، ص ٤٩٢ .

(٢) خطط المقرئى : ج ١ ، ص ٤٩٥ .

(٣) كتاب الروضتين : ج ١ ، ص ٥٦٦ ، ٥٦٧ .

● وفي سنة ٥٧٠ هـ - (سنة ١١٧٤ م) ، تجمعت الجند السودانية الذين نجوا من معركة القاهرة سنة ٥٦٤ هـ ، وللموا شملهم وأعلنوا الثورة في « أسوان » بقيادة زعيمهم الجديد المسمى « بالكنتز » ، الذى كان يحكم مدينة أسوان ، ولكن الدائرة قد دارت عليهم مرة أخرى وأخيرة فى المعركة التى انتصرت فيها قوات صلاح الدين ضدهم فى ٧ من صفر من العام نفسه بموقعة « قوص » (١) .

المدارس السلفية

وكما اجتهد صلاح الدين فى القضاء على بقايا الجند والأمراء الفاطميين ، كذلك عمل للمء الفراغ الفكرى الذى تخلف عن ذهاب حكمهم ، فكانت حركة التصوف التى شجعتها الدولة الجديدة كإسهام فى سد الفراغ الفكرى ، الذى قام بعد زوال خلافة عقائدية . ولكننا نعتقد أن هذا لم يكن الجهد المنظم الذى بذله الأيوبيون لسد هذا الفراغ ، وإنما كان الجهد المنظم فى هذا الميدان هو ذلك الاهتمام غير العادى ، والعمل الدءوب والبناء والمثمر الذى بذلوه فى فتح العديد من المدارس السنية السلفية ، كى تعيد صياغة أيديولوجية المجتمع ، وتحل محل الأزهر الشيعى ودار الحكمة وأجهزة الدعوة والدعاة التى عرفها الفاطميون .

وعندما تولى صلاح الدين زمام الأمور ، لم يكن بالقاهرة مدرسة سنية واحدة ، بل لم يكن بالدولة المصرية سوى مدرسة سنية واحدة فى الإسكندرية ، أقامها الوزير « ابن السلار » سنة ٥٤٦ هـ - (سنة ١١٥١ م) .

والذين يقرءون تاريخ دخول الأيوبيين إلى مصر ، يلاحظون أن التيار السنى السلفى كان على الصوت فى مدينة الإسكندرية عند دخولهم إلى البلاد ، ولعل صلاح الدين قد لاحظ أثر المدرسة السنية التى كانت قائمة فى الإسكندرية ، والتى كان يرعاها أحد أئمة الحديث : الحافظ السلفى يومئذ حيث كان لها أثرها فى هذا

(١) المصدر السابق : ج ١ ، ص ٦٠٠ ، ٦٠١ .

الموضوع . فنحن نجد أسد الدين شركوه ، يكتب « إلى أهل الإسكندرية يستنجدهم على شاور لأجل إدخاله » الفرنج « إلى دار الإسلام ، وتضييعه أموال بيت مال المسلمين » (١) . كما نجد صلاح الدين ، الذى حوصر بجيشه داخل الإسكندرية ثلاثة أشهر ، فى جولتهم الأولى بمصر، وقبل أن يستقر بهم المقام ، نجده عندما يغادرها إلى الشام قد « استحلف شاوراً لأهلها بالآلا يعرض لهم بسوء » . ولكن شاورا ينقض هذا الاتفاق ، فلقد قبض « على ابن مصال وجماعة ممن أعان صلاح الدين ، وضيق عليهم ، وتبع أهل الإسكندرية » . فيتحدث صلاح الدين إلى ملك « الفرنج » - الطرف الثالث فى المعاهدة - فى ذلك ، فيبعث ملك الفرنج إلى شاور يلزمه « يميناً أخرى فى ألا يعرض لأحد ممن لجأ إلى أسد الدين أو صلاح الدين » (٢) .

ولا بد أن تكون هذه الآثار السياسية ، ذات الصلة الوثيقة بالبيئة الفكرية التى خلفتها هذه المدرسة السنية ، فى مقدمة الحوافز التى جعلت صلاح الدين ، وكل سلاطين الأيوبيين من بعده يركزون جهدهم فى ميدان الفكر على إنشاء المدارس السلفية السنية التى بلغت فى عهدهم ، فى القاهرة ، خمس عشرة مدرسة . هى :

١ - المدرسة الناصرية : وهى التى أنشئت بجانب ضريح الإمام الشافعى فى سنة ٥٦٦ هـ - (سنة ١١٧٠ م) لتدريس الفقه الشافعى (٣) .

٢ - المدرسة القمحية : وهى التى أقيمت سنة ٥٦٦ هـ - (سنة ١١٧٠ م) فى دار الغزل ، وسميت بذلك نسبة للقمح الذى كان ينفق عليها من ضيعة أوقفت لها بالقيوم (٤) .

(١) كتاب الروضتين : ج ١ ، ص ٤٢٦ .

(٢) المصدر السابق : ج ١ ، ص ٤٢٨ .

(٣) المصدر السابق : ج ١ ، ص ٤٨٦ . والقاهرة : تاريخها وآثارها ، وسيرة القاهرة : ص ٢٥٤ .

(٤) كتاب الروضتين : ج ١ ، ص ٤٨٦ . وسيرة القاهرة : ص ٢٥٤ .

- ٣- المدرسة القطبية : وهى التى أنشئت سنة ٥٧٠ هـ- (سنة ١١٧٤ م) .
- ٤- مدرسة ابن الأرسوفى : والتى أنشئت فى سنة ٥٧٠ هـ- (سنة ١١٧٤ م) .
- ٥- مدرسة السيوفية : أو مدرسة سيف الدين ، ولقد بنيت للأحناف ، وكانت بجوار الحسين ، حول قصر المأمون القديم^(١) ولقد أنشئت سنة ٥٧٢ هـ- (سنة ١١٧٦ م) .
- ٦- المدرسة الفضيلىة : وهى التى شيدها القاضى الفاضل سنة ٥٨٠ هـ- (سنة ١١٨٤ م) ، للشافعية والمالكية .
- ٧- مدرسة أشكشبية : وهى التى أقيمت سنة ٥٩٢ هـ- (سنة ١١٩٥ م) .
- ٨- المدرسة الغزنوية : وهى التى أقيمت سنة ٥٩٢ هـ- (سنة ١١٩٥ م) .
- ٩- المدرسة العادلية : نسبة للسلطان العادل الأول سيف الدين ، والتى أنشئت بعد سنة ٥٩٥ هـ- (سنة ١١٩٨ م) .
- ١٠- المدرسة الشريفة : نسبة لقاضى العسكر الشريف شمس الدين الأرموى ، الذى درس فيها ، كما درس فى المدرسة الناصرية ، وهى التى أنشئت سنة ٦١٢ هـ- (سنة ١٢١٥ م) .
- ١١- المدرسة الكاملية ، أو دار الحديث : وكانت تقع فى منطقة بين القصرين ، ولقد أنشئت سنة ٦٢٢ هـ- (سنة ١٢٢٤ م)^(٢) .
- ١٢- المدرسة الفخرية : وهى التى أنشئت سنة ٦٢٢ هـ- (سنة ١٢٢٤ م) .
- ١٣- المدرسة الصيرمية : وهى التى أنشئت سنة ٦٣٦ هـ- (سنة ١٢٣٨ م) .
- ١٤- المدرسة الفايزية : وهى التى أنشئت سنة ٦٣٦ هـ- (سنة ١٢٣٨ م) .

(١) سيرة القاهرة : ص ١٦٤ ، ٢٥٤ .

(٢) المصدر السابق : ص ٢٥٤ . والقاهرة : تاريخها وأثارها .

١٥ - المدرسة الصالحية : نسبة للملك الصالح ، وهى التى أنشأها بين القصرين سنة ٦٣٩ هـ - (سنة ١٢٤١ م)^(١).

والأمر الذى يعطى المزيد من الأهمية لهذه المدارس التى أقامها الأيوبيون ، أن كل واحدة منها إنما كانت مؤسسة علمية كبيرة ، لها من الإمكانيات الفكرية والمادية ما يتيح لها أن تؤدى دوراً هاماً فى الحياة الفكرية للبلاد . وحتى نعلم كيف كان لمدرسة الإسكندرية ، التى أشرنا إليها ، ذلك الأثر الذى أشرنا إلى بعضه ، ونعلم كذلك تلك الآثار التى أحدثتها هذه المدارس الأيوبية ، يكفى أن نعلم أن ابن جبير عندما زار مصر فى سنة ٥٧٨ هـ - (سنة ١١٨٣ م) ، وجد العمل لا يزال جارياً فى بناء المدرسة الناصرية التى بدأ إنشاؤها فى سنة ١١٧٠ م . ووصف ضخامتها ، فقال : إنها « مدرسة لم يعمر بهذه البلاد مثلها ، لا أوسع مساحة ، ولا أحفل بناء . يخيل لمن يتطوف عليها أنها بلد مستقل بذاته ، وبإزائها الخيام ، إلى غير ذلك من مرافقها ، والبناء فيها حتى الساعة ، والنفقة عليها لا تحصى . . . تولى ذلك الإمام الزاهد العالم . . . نجم الدين الخبوشانى . . . وصلاح الدين يسمع له بذلك كله ، ويقول : زد احتفالاً وتأنقاً ، وعلينا القيام بمؤنة ذلك كله ا »^(٢).

إقطاعات الأجناد

عندما بعث الخليفة الفاطمى العاضد إلى نور الدين فى سنة ٥٦٤ هـ برسالته التى ضمت خصصات من شعور نسائه ، والتى دعاه فيها إلى إيفاد جيشه لحماية مصر من الصليبيين ، وعده فى هذه الرسالة بأن يقطعه « ثلث بلاد مصر ، وأن يكون أسد الدين شيركوه مقيماً عنده (عند العاضد بمصر) فى عسكره ، وإقطاعهم عليه خارجاً عن الثلث الذى لنور الدين »^(٣). وبعد أن حضر

(١) سيرة القاهرة : ص ٢٥٤ ، والقاهرة : تاريخها وآثارها .

(٢) رحلة ابن جبير : ص ٥٠ .

(٣) كتاب الروضتين : ج ١ ، ص ٣٩١

أسد الدين ، وتولى الوزارة ، وحمل لقب الملك المنصور أمير الجيوش « أقطع البلاد العساكر التي قدمت معه ^(١) . وهذا الإقطاع ، الذي صير مصر بأرضها ونواحيها وقفًا على هؤلاء الأجناد ، هو الذي جعل هؤلاء الجنود « الذين ذاقوا حلاوة ملك الديار المصرية ، وخافوا على فوت ذلك منهم » ^(٢) ، يتفانون في إزالة كل العقبات التي قامت في طريق انفراد الأيوبيين بالسلطة في البلاد . ودوننا دخول في أبحاث طويلة ومعقدة عن مدلول كلمة « الإقطاع » عند المفكرين العرب الذين كتبوا في « الأموال والخراج » ، وعند الفقهاء الذين عاجلوا هذا الضرب من ضروب العلاقة بين صاحب الإقطاع وبين الذين يفلحون الأرض التي أقطعت له ، وعند المؤرخين العرب المسلمين الذين أروخوا ، عرضًا ، لهذا النظام ، دون أن ندخل في كل ذلك ، فإنه يكفينا أن نشير إلى أن السلطان قد كان عندما يقطع ناحية من النواحي لأmir من أمراء الجند ، فإن هذا الأمير إنما كان يحارب ويحجز الانتصارات ، ويتجهز هو وجنوده ، من ربيع هذه الناحية التي صارت إقطاعًا له ، وأن كفاءته كجندي مقاتل إنما كانت شرطًا لتمتعه بريع هذه الأرض وذلك الإقطاع . ومن هنا ، كان هذا النظام نظامًا إقطاعيًا يقوم على أن ريع الأرض إنما هو لهذا الأمير المملوك ومن تحت إمرته من الجنود .

ولقد حدثنا المقرئ في خططه عن ذلك التغيير الأساسي والمهم الذي أحدثته الدولة الأيوبية في شكل الاستغلال الزراعي . فبعد أن كان نظام القبالات و«الالتزام» هو السائد ، أقطع صلاح الدين جنوده أرض مصر في نظير الحرب التي خاضوها ، والتي في الانتظار أن يخوضوها ضد الصليبيين ، يحدثنا المقرئ عن ذلك التغيير الذي ساد مصر حتى عصره هو ، عندما يقول : « اعلم أنه لم يكن في الدولة الفاطمية بديار مصر ، ولا فيما مضى قبلها من دول أمراء مصر ، لعساكر البلاد إقطاعات بمعنى ما عليه الحال اليوم في أجناد الدولة التركية ، وإنما كانت

(١) المصدر السابق : ج ١ ، ص ٤٠٢ .

(٢) المصدر السابق : ج ١ ، ص ٦٠٠ .

البلاد تضمنن بقبالات معروفة لمن شاء من الأمراء والأجناد والوجوه وأهل النواحي من العرب والقبط وغيرهم»^(١) أى أنه بعد أن كان شكل الاستغلال الإقطاعى للأرض هو نظام الالتزام الذى يمكن لمن دفع الضمان أن يحصل على امتياز من «الأمراء والأجناد والوجوه وأهل النواحي من العرب والقبط وغيرهم» ، انحصر حق الاستغلال الإقطاعى للأرض ، أساسًا ، فى «عساكر البلاد» ، وذلك بسبب الدور المتزايد الذى أصبح للجيش الأيوبى الذى أقام الدولة ، وأزال أعداءها ، وكان يسهر على حمايتها ، وأكثر من ذلك ، الذى فرضت الأخطار الصليبية على المجتمع أن يمنحه كل شيء بها فى ذلك أرض البلاد فى صورة إقطاعات للأجناد .

ولذلك ، فإن هذا الموقف الأيوبى من قضية الأرض وأشكال استغلالها ، لم يكن بدعًا ، وإنما كان استجابة للموجة العسكرية التى ركبت المد فى الشرق العربى الإسلامى ، والتى لم يكن الأيوبيون إلا أحد آثارها .

بل إننا نجد أنه فى نفس العام (سنة ٥٦٤ هـ) ، الذى أقطع فيه أسد الدين شيركوه البلاد للعساكر التى قدمت معه ، نجد الصليبيين عندما عزموا على تحريك جيشهم — الذى هزمه أسد الدين — إلى مصر ، أحضر ملكهم « وزيره ، وأمره بإقطاع بلاد مصر لحياتته (فرسانه) ، وفرق قراها على أجناده ! » . ويعلق المؤرخ أبو شامة على ذلك بقوله : « وكان ، لعنه الله ، لما دخل ديار مصر قد أقام من أصحابه من كتب له أسماء قرى مصر جميعها ، وتعرف له خبر ارتفاعها (دخلها)»^(٢) .

فنحن إذن أمام طابع العصر ، ونظام ساد فيه ، هو النظام الإقطاعى ، وبإزاء شكل من أشكال الاستغلال الذى عرفه هذا النظام ، فرضته ظروف الحرب وسيادة الجيوش ، هو إقطاعات الأجناد . ولقد ظل هذا النظام سائدًا حتى عدله من ناحية الشكل التشريع المعروف « بالبروك الناصرى » ، والذى قسمت فيه أرض

(١) خطط المقرئى : ج ١ ، ص ٨٥ .

(٢) كتاب الروضتين : ج ١ ، ص ٤٣٠ .

مصر إلى أربعة وعشرين قيراطاً ، للسلطان أربعة وللأجناد (رؤساء الجند) عشرة ،
وللدولة عشرة^(١) ، ولا شيء للفلاح ! .

أما المظاهر التطبيقية التي تضع يدنا على الصورة التي كانت عليها أرض مصر
ونواحيها في ذلك الحين ، وفي ظل هذا النظام ، فإننا نستطيع أن نقدم العديد
منها ، في هذه النقاط :

● فلقد كانت مصر تدفع مبلغاً من المال سنوياً لأمر مكة كرسوم على الحجاج
المصريين - « مكس الحج » - إلى جانب إقطاعات أقطعها صلاح الدين لهذا الأمير
في صعيد مصر ، وجهات أخرى من الدولة الأيوبية^(٢) .

● وفي سنة ٥٦٦ هـ - (سنة ١١٧٠ م) ، طلب شمس الدولة تورانشاه - أخو
صلاح الدين - ، طلب منه زيادة إقطاعه ، لأنه كان جواداً كريماً ، وكان إقطاعه
لا يكفي ولا « يقوم بفتوته ولا ينهض بمروءته ! » ، فأعطاه صلاح الدين فوق ما
كان له « زرع الكامل بالقاهرة ، و « بوش » (من أعمال بنى سويف) و « أعمال
الحيزة » (قراها) و « سمنود » ، وغيرها^(٣) .

● وعندما زار ابن جبير مدن صلاح الدين وفتغوره في الشام ، وجد طابع الحياة
فيها وحياة أمرائها ، هو نفس طابع الحياة التي يميهاها أمراء الإقطاع العرب
الأندلسيون ، الذي كانوا يسمون بملوك الطوائف . فلقد قال عن أمراء « نصبيين »
و « دارا » و « مارديس » و « دنيسر » و « رأس عين » : إنهم كملوك الطوائف
بالأندلس ، « كلهم قد تحلى بحلية تنسب إلى الدين ، فلا تسمع إلا ألقاباً هائلة ،
وصفات لدى التحصيل غير طائلة ! » ، وأن ما عدا صلاح الدين ، فإنها هي
« زعازيع ريح ، وشهادات يردها التجريح ! »^(٤) .

(١) فجر اليقظة القومية : ص ١٦٣ .

(٢) رحلة ابن جبير : ص ٦٩ .

(٣) كتاب الروضتين : ج ١ ، ص ٤٨٨ .

(٤) رحلة ابن جبير : ص ١٣ .

● ومن خلال بعض الأرقام التى نعثر عليها لدى المقرئى ، نجد أن مصر فى سنة ٥٨٥ هـ - (سنة ١١٨٩ م) قد قسمت إلى ٢٣ منطقة ووحدة اقتصادية ، فى الوجه البحرى منها اثنتا عشرة منطقة يجمع منها ٦٥٣ ، ١٥١ ، ١ دینارًا ، وفى الوجه القبلى منها إحدى عشرة منطقة يجمع منها ٤٤١ ، ٦١٠ ، ١ دینارًا . ثم نجده يذكر لنا كيف كانت فى الميزانية على عهدهم أرقام كثيرة ، وبنود متعددة تذهب إلى الأجناد . فلأمرء والأجناد ٢٠٣ ، ١٥٨ دنانير ، وللعربان (وهم جند وفرقة فى الجيش) ٢٩٦ ، ٢٣٤ دینارًا ، وللكنانية (وهم جند وفرقة فى الجيش) ٤١٢ ، ٢٥ دینارًا ، وللقبارية والصالحية والأجناد المصریین ٥٠٤ ، ١٢ دنانير ، وللغزاة والعساقلة المركزة بدمياط وتینس وغيرهم ٧٢٥ ، ١٠ دینارًا ، وهكذا وهكذا .

المكوس

على أن هذا النظام الذى وزعت به أرض مصر إقطاعات للأمرء والأجناد ، والذى تغير به شكل الاستغلال الإقطاعى فيها منذ حكمها الأيوبيون ، لا يعنى أن وحدة البلاد الإدارية والسياسية قد ضعفت عن ذى قبل . بل إن الأمر ، فيما يتعلق بهذا الموضوع ، كان على العكس من ذلك تمامًا . فعلاوة على دور نهر النيل التاريخى والتقليدى فى بناء وحدة مصر ، وتأكيد مركزيتها ، وتعميق هذه الوحدة وتلك المركزية ، نجد أن هذا التقسيم الإقطاعى الأيوبي للأرض قد أقطعها لأمرء الحرب والأجناد ، وهم لم يكونوا يعيشون فى النواحي التى أقطعت لهم ، بل قد لا يكون أغلبهم ، لأوقات كثيرة ، موجودًا بمصر ، وإنما بالشام لملاقاة الصليبيين ، أو بالثغور لحراستها ، أو باليمن يحكمها ، مثل شمس الدولة تورانشاه ، الذى ضاقت به إقطاعاته بمصر ، ففتح اليمن كى تتسع له دائرة الإقطاعات ! أو بمكة ، مثل أميرها الذى أقطعه صلاح الدين بعض نواحي الصعيد . ومن ثم ، فإننا إذا قارنا الوضع الجديد ، فيما يتعلق بالوحدة الإدارية للدولة ، بوضعها زمن الفاطميين ، وخصوصًا فى مرحلة ضعفهم ، أيام كانت دوائر الالتزام تمنح لمن يقيم فيها أحيانًا ، أو يباشر أعمالها غالبًا ، ولم ينب عنه من يتنظر عليها فى كل

الأحيان ، فإننا نجد أن النظام الجديد قد قارب بين هذه الوحدات الاقتصادية (الإقطاعات) ، وزاد بذلك من الوحدة الإدارية والسياسية للبلاد .

ولعل وراء ذلك يقف السر في إلغاء صلاح الدين الأيوبي للمكوس ، التي كانت بمثابة الضرائب الداخلية على التجارة العابرة بين الأقاليم والمدن المختلفة في الدولة . ففى يوم الجمعة ٣ من صفر سنة ٥٦٧ هـ - (سنة ١١٧١ م) ، قرىء المنشور الخاص بإلغاء المكوس في مصر ، والذي جاء فيه :

« . . . ولما تقلدنا أمور الرعية ، رأينا المكوس الديوانية (الحكومية) بالقاهرة ومصر أولى ما نقلناها من أن تكون لنا في الدنيا إلى أن تكون لنا في الآخرة ! ! . . . ونضعها ، فلا ترفعها من بعد يد حاسب ولا قلم كاتب . . . وخرج أمرنا بكتب هذا المنشور بمساحة أهل القاهرة ومصر ، وجميع التجار المترددين إليهما ، وإلى ساحة المقسم (المقس) والمنية ، بأبواب المكوس ، صادرها وواردها ، فبرد التاجر ويسفر ، ويغيب عن ماله ويحضر ، ويقارض ويتجر ، برا وبحرا ، مركبا وظهرا ، سرا وجهرا ، لا يجل ما شده ، ولا يحاول ما عنده ، ولا يكشف ما ستره ، ولا يسأل عما أورده وأصدره ، ولا يستوقف في طريقه ، ولا يشرق بريقه ، ولا يؤخذ منه طعمة ، ولا يستباح له حرمة ، والذي اشتملت عليه المساحة في السنة من العيين (الذهب) مائة ألف دينار » (١) .

وكانت المكوس التي تجبى بمصر قبل ذلك المنشور كثيرة ومتعددة ، وشديدة الإرهاق للتجار والمواطنين . فابن جبير يحدثنا عن أن الحجاج المغاربة المارين بمصر كان يدفع كل منهم ، برغم فقرهم الشديد ، سبعة دنانير ونصفا . كما أن الأمر قد بلغ إلى الحد الذي أخذت فيه المكوس على شرب ماء النيل . . فضلا عما

(١) كتاب الروضتين : ج ١ ، ص ٥٢٢ ، ٥٣٢ . والبداية والنهاية : ج ١٢ ، ص ٢٦٨ .
ورحلة ابن جبير : ص ٥٥ .

سواها» (١) . ولقد كانت الصناعات القائمة بمدينة مصر تدفع مكوساً قيمتها ١٠,٠٠٠ دينار ، و « ما يستخرج بالأعمال القبلية والبحرية مائة ألف دينار » ، فألغى صلاح الدين « جميع المكوس ، صادرها وواردها ، جليلها وحقيرها » (٢) .

على أننا يجب ألا نرتب على هذا الحدث الاقتصادي والإداري المهم ، الذي يتمثل في إلغاء المكوس ، أى آثار اجتماعية قد يتصورها البعض . فلم يكن خلف هذا القرار تخفيف حقيقى فى الأعباء عن كاهل الشعب المصرى . ذلك ، أن المكوس إنما كانت تجبى وتجمع من قبل ، ليتحمل عبثها أساساً التجار والمتمزمون الذين ينقلون السلع والمحاصيل من إقليم إلى إقليم . أما الآن ، فلقد حل الأمر والأجناد محل هؤلاء المتمزمين ، وصار كل الربيع والفائض الناتج من هذه الإقطاعات والنواحي خالصاً لهم ولنفقاتهم من دون الناس . وأكثر من ذلك ، فإننا عندما نقارن المفروض على الأقاليم المصرية فى عهد صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٨٥هـ ، حسب أرقام المقرئىزى ، بما كان مفروضاً على مصر زمن الخليفة الفاطمى المستنصر ، نجد المبلغين يكادان يتساويان . فإذا أضفنا إلى ذلك حقيقة هامة ذكرها ابن جبير عن الأموال الكثيرة التى يجمعها عمال الموانى فى الإسكندرية ، وفى مداخل المدن وعند مراسى السفن ، باسم الزكاة ، غير مفرقين فى ذلك بين المال الذى مر عليه عام ، وبالتالى استحققت عليه الزكاة ، وبين الذى لم يحل عليه الحول ، ولا مفرقين بين المال الذى بلغ النصاب والذى لم يبلغ ، وكيف شمل ذلك « الحجاج الذين لا يحملون سوى زادهم » ، وكيف « يعترضون الغرباء المنقطعين ممن تجب الزكاة له لا عليه ! » . كما تحدث عن « التعريض لمراكب المسافرين ، وتكشفتها ، والبحث عنها ، وإدخال الأيدى إلى أوساط التجار ، فحسباً عما تأبطوه أو احتضنوه من دراهم أو دنانير . . كل ذلك برسم الزكاة ، دون مراعاة لمحلها ، أو ما يدرك النصاب منها . . وربما ألزموهم الأيمان على ما

(١) رحلة ابن جبير : ص ٥٥ .

(٢) كتاب الروضتين : ج ١ ، ص ٤٤٣ ، ٤٥٦ .

بأيديهم، وهل عندهم غير ذلك؟! ويحضرون كتاب الله العزيز يقع اليمين عليه، فيقف الحجاج بين أيدي هؤلاء المتناولين لها مواقف خزى ومهانة تذكرهم أيام المكوس!». كما يتحدث عن «خروج شرذمة من أعوان الزكاة وفي أيديهم المسال الطوال ذوات الأنصبه، فيصعدون إلى المراكب استكشافاً لما فيها»، فيتجسسون على كل شيء^(١).

فإذا علمنا أن ضريبة الزكاة هذه قد حلت محل المكوس، وإذا علمنا كذلك أن النشاط التجارى قد زاد بمصر في تلك الفترة بسبب تعطل طريق التجارة العالمية المار بالشام لوجود الأخطار الحربية هناك على القوافل لاشتعال الحرب مع الصليبيين، أدركننا أن إلغاء المكوس، لم يكن بالقرار الذى رفع الشىء الكثير عن كاهل الناس حينئذ. ومن ثم، فإنه ليست هناك وجوه للشبهه بينه وبين إلغاء المكوس فى أوربا بين الإمارات الإقطاعية عندما ساد الشعار البورجوازى: «دعه يعمل، دعه يمر»، على الرغم من تلك الصياغة التى صيغ بها منشور صلاح الدين التى توحى، للوهلة الأولى، بأوجه للشبهه كثيرة بين أهداف المنشور وبين هذا الشعار.

وهكذا، نجد أن الخطر الصليبي المدمر، الذى اجتاح المشرق العربى فى ذلك التاريخ، والذى كان سبباً فى قيام الدولة الأيوبية فى مصر، التى أخذت على عاتقها مواجهته، والتى بذلت فى ذلك الكثير، وسجلت فى ميدانه الكثير من صفحات البطولة والفخار، نجد أن هذا الخطر هو الذى كان وراء تلك التغيرات الاقتصادية التى حدثت فى نظام استغلال الأرض المصرية، كما كان وراء تلك الفكرية السلفية المحافظة التى سادت ذلك العصر من عصور حياة مصر بالقاهرة.

ولقد ظل هذا الخطر يودى هذا الدور. وعندما انضم إليه خطر التتار، والحلف

(١) رحلة ابن جبير: ص ٤٤، ٤٥، ٥٩، ٦٠.

الذى قام بين التتار الوثنيين والغرب المسيحي الاستعماري ، تقدم الأمراء والأجناد ، حملة السيوف ، خطوة جديدة إلى الأمام ؛ فبدلاً من أن يكتفى زعيمهم « عز الدين أيك التركمانى بمنصب القيم على السلطان الصبى ذى الثمانى السنوات « الأشرف موسى » الذى أجلسوه على العرش « بعد شجرة الدر » نجده يخلع « الأشرف موسى » ويتزوج شجرة الدر ، ويتولى سلطنة البلاد سنة ١٢٥٠م - (سنة ٦٤٨هـ) ، فتنشأ بذلك دولة المماليك البحرية ، تماماً كما صنع صلاح الدين الأيوبي عندما لم يكتف بأن يكون وزيراً للعاقد وقائداً للجيش فى سنة ١١٧١م (سنة ٥٦٧ هـ) ، لأن الأخطار العسكرية الخارجية قد كانت فى سنة ١٢٥٠م كما كانت فى سنة ١١٧١م تقتضى أن تكون السياسة والجندية فى يد واحدة ، لا موزعة بين الخليفة أو السلطان وبين أمير الجيوش وقائد الأجناد .

* * *

وهكذا ، أسهمت الأخطار الحربية الصليبية مع المشكلات الاقتصادية والاجتماعية ، التى نشأت فى المجتمع المصرى ، على عهد الفاطميين ، أسهمت كل هذه العوامل فى إنهاء هذه الخلافة ذات الطابع العقلانى ، التى مثل عصرها الحقبة الزمنية التى اكتملت فيها قسبات العروبة للمجتمع المصرى ، التى عادت فيها مصر تأثيراتها القيادية فى المجتمع العربى ، عندما تحولت من « ولاية » إلى « عاصمة » للخلافة تتبعها « الولايات » و « الإمارات » . .

وإذا كانت مصر قد شهدت تغييرات هامة - فى الفكر والاقتصاد والاجتماع - خلال العهد الأيوبي ، غيرت من الطابع والقسامات التى سادتها وميزتها فى العهد الفاطمى ، إلا أن الشئ الذى لم يتغير فيها هو الدور القيادى الذى ظلت تمارسه ، على النطاقين العربى والإسلامى ، ضد الغزوة الصليبية والزحف التترى وكل الأخطار التى أحذقت بالوطن العربى منذ ذلك التاريخ . .

لقد طويت صفحة حافلة من تاريخ مصر العربية . . ولكنها واصلت إمداد التاريخ العربى بالأحداث التى يسطر منها العديد والعديد من الصفحات .

المصادر

- ابن جبير : رحلة ابن جبير : (تذكرة الأخبار عن اتفاقات الأسفار) . طبعة دار التحرير ، القاهرة سنة ١٩٦٨ م .
- ابن خلدون : (المقدمة) طبعة القاهرة ، سنة ١٩٠٤ م .
- ابن كثير : (البداية والنهاية في التاريخ) . طبعة القاهرة .
- أبو شامة : (شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسى : كتاب الروضتين في أخبار الدولتين : النورية والصلاحية) . تحقيق : د . محمد حلمى محمد أحمد . طبعة القاهرة ، سنة ١٩٦٢ م .
- جورج كيرك : (موجز تاريخ الشرق الأوسط) . ترجمة : عمر الإسكندرى . طبعة الألف كتاب ، القاهرة .
- ستانلى لينبول : (سيرة القاهرة) . ترجمة : د . حسن إبراهيم حسن ، ود . على إبراهيم حسن ، وإدوارد حليم . طبعة القاهرة ، سنة ١٩٥٠ م .
- عبد الرحمن زكى : (القاهرة : تاريخها وأثارها) (٩٦٩ - ١٨٢٥ م) من جوهر القائد إلى الجبرتي المؤرخ . طبعة القاهرة ، سنة ١٩٦٦ م .
- د . عبد المنعم ماجد : (السجلات المستنصرية) « دراسة وتحقيق » طبعة القاهرة ١٩٥٤ م
- فيليب حتى - وآخرون : (تاريخ العرب) « مطول » . طبعة بيروت ، سنة ١٩٥٣ م .

- القلقشندى : (صبح الأعشى) . طبعة القاهرة .
- المقرئى : (خطط المقرئى) . طبعة بولاق .
- اتعاط الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء . تحقيق : د . جمال الدين الشيال . طبعة القاهرة ، سنة ١٩٦٧ م .
- إغاثة الأمة بكشف الغمة . . تحقيق : د . محمد مصطفى زيادة ، ود . جمال الدين الشيال . طبعة القاهرة ، سنة ١٩٤٠ م .
- محمد عبد الله عنان : (الحاكم بأمر الله ، وأسرار الدعوة الفاطمية) . طبعة القاهرة ، سنة ١٩٥٩ م .
- د . محمد ضياء الدين الرئيس : (الخراج والنظم المالية للدولة الفاطمية) . طبعة القاهرة ، سنة ١٩٥٩ م .
- د . محمد عمارة : (فجر اليقظة القومية) . طبعة القاهرة ، سنة ١٩٦٧ .
- اليافعى (عبد الله بن أسعد) : (مرآة الجنان وعبرة اليقظان فى معرفة حوادث الزمان) . طبعة حيدرآباد ، بالهند ، سنة ١٣٣٩ هـ .

الفهرس

٥	مقدمة :
٩	الفصل الأول : المغزى الحضارى لنشأة القاهرة
١٠	القاهرة . . . فلسفة المكان
١٧	الفصل الثانى : مصر . هل فتحت أبوابها لكل الغزاة؟
١٨	تساؤل . . يجير الكثيرين
٢٩	الفصل الثالث : الوجه المشرق لمصر الفاطمية
٣٠	أزهى العصور المصرية
٣٣	الغنى والترف
٤٥	الفصل الرابع : الحياة الفكرية فى مصر الفاطمية
٤٦	الحياة الفكرية
٦٣	الفصل الخامس : « الدولة » الفاطمية فى مصر
٦٤	جهاز الدولة الفاطمية
٦٩	الفصل السادس : عن الحاكم بأمر الله
٧٠	قنسات هامة وطريفة
٨٧	الفصل السابع : عن المجاعات والحروب والمظالم الاجتماعية
٨٨	الوجه الآخر للعملة
١٠٥	الفصل الثامن : مصر تقاوم
١٠٦	تمردات وانتفاضات
١١٩	الفصل التاسع : أسباب الاضمحلال
١٢٠	غروب شمس الفاطميين
١٣٩	الفصل العاشر: سُنَّة الأيوبيين تمحو آثار الفاطميين
١٤٠	أشواك على طريق صلاح الدين
١٥٧	المصادر:

رقم الإيداع : ٢٢٧٨ / ٩٧
الترقيم الدولي : 6 - 0373 - 09 - 977 - I.S.B.N.

مطابع الشروق

القاهرة : ٨ شارع سيويه المصرى - ت : ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣ - فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)